جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنين بالشرقية
قسم الأدب والنقد



من التاريخ الأدبي (٣):

دراسات في الأدب الأموي

إعداد

الأستاذ الدكتور
محمد عارف محمود حسين
أستاذ الأدب والنقد
وعميد الكلية

الدكتور
حسام محمد علم
أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد
المساعد بالكلية

الطبعة الثالثة
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م


بسم الله الرحمن الرحيم
قال الله تعالى
وقل اعملوا
فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون
صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، الرحيمُ الرحمان، خلقَ الإنسانَ، علمه البيانَ، وأضاءَ أبصاره وبصائره بنور القرآنِ...،

والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي، أبلغ المتكلمين، وأفصح الناطقين الذي ميزه اللهُ تعالى بالقرآن الكريم

وبعـــد..

فهذا مجملُ ما ألقيناه من محاضرات على طلبة السنة الثانية بالكلية في تاريخ الأدب الأموى، راجين أن نكونَ وُفّقنا في استعراض حياته وتوضيح مسائله، وكشف سماته ومعالمه.،

ونسأل الله تبارك وتعالى أن يهبنا العون والتوفيق والسداد فيما نقوم به من أعمال، إنه نعم المولى، ونعم النصير.،،

الأستاذ الدكتور

محمد عارف محمود حسين

حياة الأمويين ... مقدمة في المنهج

أولاً: السياسية:

بادئ ذي بدء فإن الخلفاء الراشدين – ومن بينهم عثمان – قد سعوا سعياً حثيثاً؛ لأن يسيّروا – في المسلمين – سيرة النبي ﷺ من تحقيق المساواة بين الناس، وإقامة العدل المطلق بمفهوم القرآن الواسع؛ لكن أقاربه – من بني أميّة حيث كان باراً بهم فاستطاعوا أن يصلوا إلى إمارة أكثر الولايات والجيوش الإسلامية فى أيامه – أحدثوا أموراً كان من آثارها أن ابتلي المسلمون بكثير من الفتن، وقد اتخذوا من القرابة سبيلاً لتحقيق أهدافهم، وعليه كان الحصاد المر لهذه الواقعة بأن قامت الثورة عليه وقُتل.

فبمقتل عثمان رحمهُ الله صار السيف هو القول الفصل في خصوماتهم ومشاحناتهم التي أُصطبغت بالصبغة القبلية حتى ظهرت الحروب الأهلية.

على جانب آخر فإن مقتل عثمان ذاك الصحابي الجليل قد فجر مشكلتين محليتين:-

الأولى: حتمية فعلية ممثلة في انتخاب خليفة جديد يحفظ عليهم نظامهم وسياستهم وهنا بايع المسلمون – في المدينة – عليّا بالخلافة، وقد ألحوا عليه في قبولها، فلما جلس علي لأخذ البيعة لاحت – في الأفق – بوادرُ فتنة وخصوصاً عندما رفض بعض الصحابة المبايعة؛ لكنه لم يأخذ موقفاً منهم.

وعلى كلّ فلقد بدأ النزاع بينه وبين بني أمية، وعلى رأسهم معاوية الذي عرف رأى علي فيه وكان قد عزل جميع ولاة أهل عثمان قبل

أن تصل إليه بيعةُ أهل الأمصار وأما «أهل الشام فقد انقلبوا عليه بعد أن جمعهم معاوية وقرأ عليهم كتاب نائلة -زوجة عثمان- فدعاهم إلى الطلب بدمه»[١].

وأما الأخرى: فكانت تبعيّة ردّ فعليةٍ متمثلة فى عزم عليّ على التحقيق في مقتل عثمان لكنه لم يمضِ فيه قدماً بسبب تحرك عائشة إلى البصرة ودعوتها للنيل من قتلة عثمان حيثُ انضم إليها طلحةُ والزبير، وراحوا جميعاً يشكلون خطراً على الخليفة، فحدثت المواجهة في وقعة الجمل التي قُتل فيها طلحة والزبير، وعقد عليّ صلحاً مع أهل البصرة حتى اعترف العراق بخلافته؛ فاتخذ الكوفة مقراً له.

لم تهدأ الحياة كثيراً حتى رأينا معاوية يتخذ مقتل عثمان ذريعةً لصرف الخلافة عن بني هاشم إلى بني أمية فطلب من عليّ أن يحقق في قاتلي عثمان، ويسلمهم إليه؛ لكن علياً رأى أن يدخل معاوية فيما دخل فيه عامة المسلمين حتى يشرع فى إنفاذ أمر الله فيمن قتلوا الإمام المقتول. وسار علي إلى الشام ووقعت بينه، وبين معاوية خطوبٌ كثيرة بوقعة صفين التي تركت المسلمين على أحزاب ثلاثة: حزب لعلي فى العراق والحجاز، وأنصار لمعاوية في الشام، وخوارج يرفضون علياً ومعاوية.

---

(١) راجع: عبيد الله بن قيس الرقيات للدكتور إبراهيم عبد الرحمن ص ٩.
وانظر: أدب الخلفاء الأمويين لعبد الرزاق حميدة ص ٤١ مكتبة الأنجلو المصرية حيث جاء أنه لما عرف معاوية رأي علي فيه أبى بيعته، واستعان بقرابته من عثمان، وبكتاب زوجته نائلة الذي أرسلته إليه مع النعمان بن بشير تصف له فيه مقتل عثمان وصفاً مؤثراً رققت فيه، وأبلغت، كما أرسلت قميص عثمان الذي قتل فيه مخضباً بالدم ممزقاً وقد عقدت فيه شعر لحيته فجمع معاوية الناس، وصعد المنبر، ونشر عليهم القميص فتأثروا تأثراً بالغاً، وقد دعاهم إلى الطلب بدمه فأجابوا.

على هذا الوضع فلقد تفرق أمر المسلمين ، وكثرت غارات الخوارج والشام على العراق والحجاز وبالتالي انقسمت الدولة الإسلامية دولتين:

الأولى: تضم الشام ومصر تحت إمرة معاوية .

الأخرى: تضم العراق، وجزيرة العرب تحت لواء علي.

وبمقتل علي انتهى نظامُ الخلافة، وانتقل الأمر إلى معاوية الذى تمكن بدهائه، وسعة صدره من تأسيس الدولة الأموية؛ فانحصرت الخلافة وراثة في بني أمية، إذ تحولت إلى ملك يورثه الآباء للأبناء.

إن ما يؤكد ذلك استمرار الخلافة حتى مجئ بيعة يزيد التي اعتبرها الهاشميون خرقاً لعهد معاوية مع الحُسَين، بينما عدّها الحجازيون انتصاراً للشام على الحجاز، ولليمنية على المضرية؛ مما أثار حفيظة نفر من شيوخ قريش أبو أن يبايعوا ليزيد إلى أن مات معاوية، وولي يزيد من بعده فكانت الخطوب التى قُتِل فيها الحُسَين، وحرقت فيها الكعبةُ.

من هؤلاء النفر الذين أبوا أن يبايعوا: الحُسَين وابن الزبير «وقد اعتلا بالبيعة ليزيد على والي المدينة «الوليد بن عتبة» حين بلغتهما وفاة معاوية، واجتهدا في مراوغته واستمهاله حتى دبرا أمرهما تدبيراً حسناً ففرا بليل لاجئين إلى مكة»[١].

وقد أقام الحسين بمكة، واتصلت الرسل بينه وبين مؤيديه في الكوفة، وأتته كتبهم بمبايعته والتمكين له من أمور الخلافة، وقد كثرت هذه الكتب،

---

(١) انظر: تاريخ الأمم والملوك للطبري ج ٦ ص ٩٣.

وكثر الذين أمضوها من أشرف القبائل ورؤسائهم، فأغرت الحسين بالخروج إليهم، والوثوق بهم، وشاور في ذلك نفراً من أهل بيته، وأبناء عمومته، فحذروه مغبة هذا الأمر[1]، وقال له ابن عباس قولته المشهورة: «إن قلوبهم معك، وسيوفهم عليك» ! وأما ابن الزبير فقد حسّن له الخروج، وشجّعه عليه، وقال له[2]: «أما لو كان لي بها (بالكوفة) مثل شيعتك ما عدلتُ عنها» !

وقد فطن[3] ابن عباس إلى ما يريد إليه ابن الزبير من دفع الحسين إلى الخروج إلى العراق، حتى يخلو له جو مكة، فيدعو لنفسه، ولم يكن ليجرؤ على ذلك والحسين بها؛ لما يعلم من تعظيم الناس له، وتقديمهم إياه عليه.

هذا ولم يستطع ابن عباس – ونفرٌ من القرشيين – إثناء الحسين وإبعاده عن طريق ابن زياد، وغدر أهل العراق فوقعت الطامةُ به، وحلت الكارثةُ بكثير من أهله بيته إذ قتله العراقيون، ليتحقق ظن ابن عباس فيهم.

حاول ابن الزبير – وهو شيخ قريش من صحابة الرسول لا يدانيه في فضله، ومكانته الدينية أحدٌ من المرشحين من بني أمية – استغلالَ مقتل الحسين في الدعوة لنفسه فراح يذيع بين الناس سوء سيرة وخلق يزيد الذي أبقى الحجازَ عليه وترتب على هذا أن طردَ أهل المدينة يزيد، وبني أمية إلى الشام ...

فأرسل يزيدُ مسلمَ بنَ عقبةَ بجيش الانتقام حيث سلب ونهب وقتل في المدينة، ثم انتقل إلى مكة فحاصروا ابن الزبير، ورموا البيت بالمنجنيق، وحرِقَت الكعبة، وظل الحصار حتى وصلهم خبر مقتل يزيد ..

---

(١) انظر: تاريخ الأمم والملوك للطبري ج٦ ص ٢١٥.

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١٧٠.

(٣) انظر: تاريخ الأمم والملوك للطبري ج ٥ ص ١٧.

منذ ذلك الوقت اضطرب الشام - موطن الخلافة الذي كان هادئاً بعض الشئ - وانقسم الناس فريقين:-

الأول: يرى أن خالداً بن يزيد ليس جديراً بالخلافة؛ لصغر سنه، كما أنه ليس كفؤاً لابن الزبير..

الآخر: يرى في خالدٍ القدرةَ على التعامل مع الحوادث، وأنه سيحقق آمالهم، وكان يتزعمه الكليبية هذا بالإضافة إلى الحصين بن نمير الذي استماله مالك بن هبيرة لخالد وقد حذره من مروان بن الحكم الذي اختلف مع بني سفيان .. وعلى كل فلقد سارت الخلافة في نفس الطريق التي ارتضاها معاوية وهي الوراثة فقد أخلف مروان عبد الملك وأخلف عبد الملك الوليد الذي قال فيه الفرزدق أحد دعاة هذا الحزب.

أمّا الوليدُ فإنّ اللهَ أورثهُ	بعلمهِ ملكاً ثابتَ الدعم
خلافةٌ لم تكن غصباً مشورتها	أرسي قواعدها الرحمنُ ذو النعم

وهنا واجهت مروان مشكلتين خطيرتين الأولى: تتصل بالضحاك بن قيس الفهري. والأخرى: عبد الله بن الزبير.

فالأولى: قضى عليها بمساعدة كلب في معركة مرج راهط التي كانت مقدمة لحروب كثيرة بين القبائل حيث قامت بسبب التعصب للزبيريين من جهة قيس، والأمويين من جهة كلب[١] وبذلك تحول الصراع السياسي إلي قبلي تحكمه التقاليد الجاهلية بكل ما فيها من سفهٍ وطيش ونزق وعصبية وسوء فهم وقصد لكثير من الأمور.

---

(١) كلب هو كلب بن وبرة ينتسب إلى قضاعة اليمنية التي تُنتسب إلى حمير بن سبأ.

والأخرى: قضى عليها بمواجهة تكتلات عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب فخطط للقضاء على مصعب، واستولى على العراق ثم سيّر جيشاً بقيادة الحجاج الثقفي لاستخلاص الحجاز من عبد الله بن الزبير وبالفعل تم القضاء عليه،[١].

بهذا انتهت الحروب القرشية التي فرقت المسلمين شيعاً وأحزاباً وسفكت فيه دماؤهم، واُستُحلت فيه حرماتهم.

خلاصة ما سبق فإنه يمكننا القول بأن:

العصر الأموي قد بدأ بالخليفة والمؤسس الأموي الأول معاوية[٢] بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن قصي – حيث بدأ من ٤٠هـ وانتهى عام ١٣٢هـ استولى فيها على خلافة المسلمين بالقهر والغلبة حيناً والحيلة والدهاء حيناً آخر؛ لا عن تفاهم وتشاور أو تراضٍ بعد أن جذب إليه أهل الشام ظناً منهم أنهم يميلون إليه فجندهم لإخضاع المخالفين من أهل العراق والحجاز.

---

(١) مزيداً من التوضيح يمكن الرجوع إلى الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٣٥٧، ٣٥٨.

(٢) ولد معاوية بمكة قبل الهجرة بخمس، عشرة سنة وأسلم يوم الفتح هو وأبوه وأخوه يزيد وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس واستمر طول حياته مجاهداً حتى مات سنة ٦٠ هـ ويقال إن معاوية أراد بمبايعة يزيد جمع كلمة المسلمين بعد موته، وسد أبواب الخلاف والمنازعة التي ضربت المسلمين كثيراً ...

راجع: علي محمد حسن في الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي ص ١٣ مطبعة النهضة المصرية سنة ١٩٦٧هـ.

هذا ولقد سمّي العام الذي تولى فيه الخلافة – بعد تنازل الحسن له فيه – بعام الجماعة؛ وذلك لحقن دماء المسلمين فكانت الطريقة التي تولى الخلافة فيها تختلف عن طريقة الخلفاء الراشدين حتى قيل إن معاوية أخذ البيعة له، ولابنه بعد ذلك بحد السيف وكان مما ترتب على ذلك أن رأينا بعض الصحابة كالحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر رفضوا مبايعته بحيثُ انكروا أن تكون الخلافةُ هرقلية، كلما مات هرقل قام هرقل[١].

وأيما كان الأمر فإنه أقام دولة إسلامية ذات الفتوحات التاريخية الخالدة الذكر على مر الأيام؛ «لذا فقد كان عهده زاهراً تمتعت فيه البلاد بنعمة الطمأنينة والعدل، وأصابت نجاحاً عظيماً في الخارج»[٢] يضاف إلى هذا مجالسه التى ترجمت حياة عصره أصدق ترجمة سواءً أكانت سياسية أم زهدية أم أدبية.

صحيح أن العصر قد ظهرت فيه تيارات لم يكن لها أثرٌ من قبلُ بحيثُ انقسم المسلمون شيعاً وأحزاباً لكن هذا يمكن تقبله فى ظل دولة إسلامية مترامية الأطراف اختلفت فيها البيئات كما اختلفت الطبائع، وتباينت فيها الميول ، والنزعات، وتغايرت فيها الاعتقادات والمفاهيم ...

---

(١) انظر: الكامل فى التاريخ لابن الأثير ج ٣ ص ٢١.

وانظر: الأيام الأخيرة للدولة الأموية لعمر أبى النصر ط ١ ص ٢٢٨ المكتبة الأهلية بيروت سنة ١٩٦٢م.

(٢) انظر: مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى للسيد أمير علي ص ٧.

ظهور الاحزاب السياسية:

نظراً للحروب المستعرة التي لم تهدأ نارها، ولا تخمد أوارها بحيثُ امتدت على طول الخط الزمني فى عهد بني أمية فقد كان من الطبيعي أن تنشأ على لهيب أخاديدها قوى سياسيةٌ تعارضُ وتنتقدُ بشدةِ سياسةَ الأمويين عاصفةً بالوحدة التي نعموا بها في العهد الأول للإسلام..

من هنا نشأت الأحزابُ السياسيةُ بحيث أخذت تستكمل أسبابَ قوتها، ومعالم شخصيتها مُشكِلةً على الساحةِ ثلاثةَ أحزاب - أخذت تعارضُ بني أمية، وتدعو إلى الانقضاضِ عليهم - وهي الشيعة والخوارج والزبيريين وعلى هذا الوضع فلقد جلى العصر كبريات الخطوب.

أولاً الخـــوارج:

في تعريفهم تتعددُ الأقوال، وتتشعب الآراءُ فهناك من قائل : إنها تعني كلّ من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يكون خارجها سواءً أكان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان من بعدهم على التابعين، أو على الأئمة في كل زمان ومكان[١].

وثانٍ يرى أنهم سموا الخوارج؛ لخروجهم على يد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وآخرون يرون أنهم سموا الخوارج أخذاً من قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ سورة النساء الآية (١٠٠).

---

(١) انظر: الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص ٨٥ طبعة الأنجلو المصرية تخريج د. محمد بن فتح الله بدران.

فالناظر للتعريف الأول يراه ذماً لهم، وتحقيراً من شأنهم، لخروجهم عن جماعة المسلمين أما الثاني فإنه يقتصر على فئة معينة دون غيرها من فئات أو طوائف المسلمين، وأما الثالث: فإنه يجئ لقب مدح لاذم بحيث تكون لا من مخاليفهم.

لكننا – باختصار – نقول «هم الجمهوريون الذين يقولون باختيار الخليفة من بين الأكفاء أنّى تكون الطبقة التي ينتمون إليها، كما كانوا يرون عزل الخليفة منذ اللحظة التي يفقد فيها من حق الأغلبية»[١] وكان شعارهم لا حكم إلاّ لله سبحانه وتعالى.

وعن شأن هذا الحزب يرى الأستاذ أحمد أمين «أنه أشد الأحزاب خطراً، وأكبرها تعصباً حيث نشأ شأن أيّ فرقةٍ من الفرق الإسلامية حيث تكوّن إثر وقعة صفين، وقبول عليّ التحكيم بالطريقة التي لم يرضَ عنها الكثير من جيش عليّ كرّم الله وجهه»[٢] وهم يمثلون النزعة البدوية بصراحتها وجرأتها وغلظتها وتشددها.

إنه وعلى الرغم مما سبق فلقد جذب مذهبهم – القائم على المساواة بين المسلمين – كثيراً من الموالي الذين اضطهدهم العربُ حيثُ يتلخصُ مذهبهُم السياسي في أن الخلافة حقّ مشتركٌ بين المسلمين يتولاها القادرُ

---

(١) انظر: السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية لفان فلوتن ط ٢ ص ٧ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٩٣م.

(٢) انظر: فجر الإسلام ص ٢٥٦.

على النهوض بها دون النظر إلى القبيلة التي ينتمي إليها[١] بحيث يستوحون مذهبهم من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ سورة الحجرات الآية (١٣).

وهم يعترفون بحق قريش في الخلافة، ولا يقبلون مبدأ الوراثة الذي سار عليه الأمويون، وهم يريدون انتخاباً عاماً يشمل جميع المسلمين كما شاركت القبائل سخطها على الأمويين[٢].

وهكذا استطاع الخوارج أن يشغلوا الخلفاء الأمويين المتأخرين عن أعدائهم من الدعاة العباسيين الذين انتهزوا كل فرصة؛ لنشر دعوتهم حيث شكلوا ستاراً سميكاً حجب عن الولاة الأمويين بالعراق، وما يجري في خراسان عن الدعوة للعباسيين.

وقد أتعب مروان بن محمد جيشه في قتال الخوارج حتى إذا تلاقت بجيوش أبي مسلم الخرساني دارت الدائرة على مروان فغربت شمس الدولة الأموية؛ لتشرق على ربوع الدولة العباسية . إنه وكما يقول د. مصطفى الشكعة إننا لسنا في مواقع الحرب أو السيف هنا وإنما الذى يعنينا موقف الأدب من هذه المواقع السياسية الكبرى[٣]؛ لذا فإن الناظر المدقق فى أدب

---

(١) انظر فجر الإسلام ص ٢٥٧.

(٢) انظر: تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموي لعلي حسني الخربوطلي ص ١٨٩ دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩.

(٣) انظر: الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية ق ١ ص ١٤٤.

الخوارج منذ الفترة الأولى من خروجهم قد يرى – عن كثب – أنه اعتمد على الجدل والتناظر والتحاور من أجل الإقناع؛ فتخللته فترات التناظر بالخطابة في جموعهم، وخطابة علي فيهم، وخطب المعارك، وبعد مقتل علي اتجهت خطابتهم إلى تصوير إيمانهم، وعمق عقيدتهم، وصدقهم في عبادتهم وحبهم لله، وخوفهم من عذابه .. هذا ما تضمنه أغلب نثرهم.

أما في شعرهم فجاءت موضوعاته على حسب ظروفهم، ومقتضيات دعوتهم. ومع كلّ فهو لازمة أساسية؛ لأن وقعه أنكي من السنان في هذه الفترة حيث كان نشيدهم الذي كانوا يرددونه في معاركهم الكلامية والحربية قول شاعرهم عمران بن حطان الذى يرى أن الشعر وسيلة كريمة للتعبير عن العقيدة، واستنهاض الهمم، واستنفار الجهود، واستفراغها.

فنحنُ بني الإسلام واللهُ رَبنا   وأولى عبادِ الله بالله من شكر

حيث إن البيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ سورة الحجرات آية (١٣).

والخارجى طالما قبل الصراع خياراً يثبت – من خلاله – آراءه وطموحاته ويحقق أهدافه؛ لذا فإن موعده يكون الليل الذي احتل مكاناً بارزاً في وعيه وتعبيره ، بحيث يصبح ميدان الجلاد والجهاد والكرامة.

والليل لابد أن يستدعي الخيل فهما يعرفان الخارجي كما عرفا كثيرين من سابقيه ومعاصريه. ففي الخيل الذي اهتم به الخارجي اهتماماً شديداً؛

لأنه كريم إذ ينفق الكثير من الجهد والوقت مع صاحبه دون أن يمنن عليه، أو يطلب منه شيئاً؛ لذا يقول فيه أحد الشراة[١].

وقمتُ إليها باللجام ميسّراً

وكثيراً ما يصطحب – الوجه المخلص للتاريخ رفيقة الدرب، الملاذ الأكبر والباعث الملهم – امرأته رفيق رحلته الشاقة، واختياره الأصعب، إنها أول من آمنت بفكره، وصدقت قوله، وراحت تشاركه فى ميدان الصراع والكرامة والشرف مشاركةَ رفيق عيشها... من ذلك نقرأ قول يزيد بن جنباء الخارجي لأمرأته.

دعي اللومَ إن العيشَ ليس بدائمٍ ولا تعجلي باللوم يا أم عاصمِ
فإن عجلت منك الملامة فاسمعي مقالةَ عالم بحقك عالمِ

إنه طالما أعدّ العدّة فإن شجاعته المطلقة وعقيدته القوية يجعلانه متحدياً الأخطار، غير مبالٍ بالموت، مستهيناً به فيقول قطري بن الفجاءة في دولاب حيث جرت الحرب بين الخوارج الذين كان يقودهم، وبين أهل البصرة.

ولو شهدتني يوم «دولاب» أبصرت طِعانَ فتي فى الحرب غير ذميم
غداةَ طفت علماءُ بكر بن وائل وعُجنا صدور الخيل نحو تميم

كذلك نجد نفس القول عند الطرماح بن حكيم الشيبانى وهو كبير شعراء الخوارج، حيث كان شاعراً، وخطيباً وراوياً.

عصائبُ من شتى يؤلفُ بينهم هدى الله نزّالون عند المواقفِ

---

(١) الشراة: هم الذين شروا أنفسهم ووهبوها للجهاد.

فوارسٌ من شيبان ألف بينهم   تُقى اللهِ نزّالون عند التزاحفِ
فإن فارقوا دنياهم فارقوا الأذى   وصاروا إلى موعُود ما في المصاحف

حيث نراه يصف أبناء حزبه الخوارج شجعاناً أقوياءً متحابين خاشعين بهدى الله، محاربين صناديد عندما ينادي المنادي للجهاد، وهولاء الأبطال من شيبان البكرية الذين عرفوا بالشجاعة والإقدام، وإذا نزل بهم مكروه وفارقوا الدنيا فإنهم لا يبالون الموت؛ لأنهم كم هم مشتاقون للجنة!

وهل ينتهي الصراع على حسب ما يود كلٌ ... ! فاليوم قاتل وغداً لمقتول .. من هنا نرى كثيراً من شعراء الخوارج ينشدون الاستشهاد في المعارك آملين بالظفر به ولما يسقطون فإن الرثاء يصبح لازمة؛ لأنه يعبر عن فقد أهلهم من أبنائهم وزوجاتهم، أو ذويهم من الأصدقاء والمحبين سواءً أكان رثاءً للزوجات أو الأصدقاء.

من ذلك نقرأ رثاء الحارث بن كعب الخارجي لزيد بن عليّ أنيس السمر ، ورفيق الدرب، وسمير ميدان الجلاد والوغي:-

يا أبا حُسين لو شراة عصابة   صبحوك كان لوردهم إصدارُ
إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن   عاراً عليك وربّ قتلٍ عارُ

حيثُ نرى إحساسه الثوري الرائع النابض النابع من قوة إيمانه بالموت، وشدة الرغبة في الاستشهاد دفاعاً عن العقيدة؛ لذا فلقد تساءل الكثير منهم عن جدوى العيش ما دامت الحياة ولذاتها - على رأي طرفة - منغصة؛ لكنهم كانوا يطمحون في المكانة العليا بعد البعث بحيث تكون

رأسهم مرفوعة في جنة الخلد التي وعد الله بها عباده الشهداء مع الحور مشمولين جميعاً برضا الله، وعنايته ومغفرته ...

والقارئ لشعر قطري بن الفجاءة

فصبراً في مجالِ الموتِ صبراً	فما نيلُ الخلود بمستطاعِ
وما طولُ الحياةِ بثوبِ مجدٍ	فيطوى عن أخي الخنع اليراعِ
وما للمرءِ خيرٌ في حياةٍ	إذا ما عُدّ من سقط المتاعِ

قد يجد تجسيده لهذه المعاني السامية حيث يرى أن الوصول إلى المجد كثيراً ما يحتاج إلى صبر وكفاحٍ ومثابرة؛ لذا ينبغى أن يكون البقاء أو طول العمر شيئاً مدعاة للفخر خصوصاً إذا كان المرء من الجبناء.

فضلاً عن هذا وذاك فإن من يقرأ شعرهم فسيجد أنهم تناولوا موضوعات أخرى مثل الإيمان بفجيعة، وحتمية الموت والبعث مضافاً إلى ما سبق الحب والواقعية والزهد فى حال الدنيا، ومصائر الناس.

وبعدُ فهذا شعر الخوارج الذى عكس حياتهم السياسية بجانبيها الفكري والعسكري، وامتزج فيه التأمل والزهد بالتضحية ووجوب الاستشهاد إذ يدور في فلك الجهاد والتقوى والشجاعة، وتحدى الأخطار، وعدم المبالاة بالموت إلى ما يشبه الزهد الخالص بعيداً عن معاني الحرب والفداء. من هنا فإن شعرهم قد لعب دوراً بارزاً على الساحة الحزبية السياسية ..

فضلاً عن هذا كله فإن تلك الدفقات التلقائية القصيرة جاءت قويةً لاسيما أنه قبس ألفاظ شعره من وهج أحساسه القوى حتى صار مدرسةً واضحة المعالم فى شعرنا العربى الخالد.

ثانياً: الشـــيعة:

هم الذين كانوا يشايعون علياً رضي الله عنه، وأرضاه، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية، إمّا جلياً وإما خفياً، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عن أولاده وقالوا: إن الإمامة قضيةٌ مصلحية تناط باختيار العامةِ، وينتصب الإمام بنصبيهم بل هي قضيةٌ أصوليةٌ وركن لا يجوز إغفاله أو إهماله، ولا تفويضه إلى العامة(١) .

وعن نشأته قيل: إنه أقدم الأحزاب والفرق الدينية التي ظهرت في عصر الإسلام، وبالأخص في أواخر عهد عثمان رضى الله عنه، وأيام خلافة الإمام عليّ كرم الله وجهه.

ولما كان لعلي من المكانة بين الناس والمنزلة الممتازة فى الإسلام أخذ الشيعة ينشرون دعوتهم بين الناس حتى إذا جاء العصر الأموي وقعت المظالم على العلويين، ورأى الناس علياً وأولاده ضحايا هذا الظلم، وانتشر هذا المذهب الشيعي، وكثر أنصاره(٢) حيث كانت مدن العراق وبلاد فارس أكبرَ مراكز انتشار وتجمع المذهب الشيعي آنذاك.

هــذا ويقال إنها تفرعت من الحزب السياسي الذي قضى عليه الأمويون «بحروراء»، ثم انتشرت وقامت بحركة سياسية واجتماعية ودينية واسعة النطاق بحيثُ ضمت إليها العناصرُ الإسلامية المعادية للعرب وللأمويين جميعاً.

(١) انظر: الملل والنحل ج ١ ص ١٤٦.

(٢) انظر: شرح رسالة الحور العين لابن نشوان الحميري ص ١٥٩ مطبعة السعادة سنة ١٩٤٨م.

وبالنظر إلى أشهر الفرق الشيعية: السبئية[١] والكيسانية[٢] والزيدية[٣] والأمامية[٤] فإنها إن اختلفت في التفاصيل؛ لكنها اتفقت جميعها على أن علياً أحقّ المسلمين بالإمامة، والقيام بالأمر فى بني أمية.

ومع التطور في مبادئ الشيعة ظهرت فرقتان في أواخر العصر الأموي هما الزيدية أكثر الفرق اعتدالاً، والهاشمية المتفرعة عن الكيسانية بحيث اجتمعت على أن محمد بن الحنفية قد أوصى إلى ابنه محمد المعروف بأبي هاشم بالإمامة من بعده[٥].

وبالنظر إلى شعرهم فإنه قدم رؤية واضحة، وتعبيراً صادقاً لتجاربهم الناتجة عن الصراع الحاصل بين حكم له تطلعاته السياسية والاجتماعية، وفئتهم المعارضة له بتوجهاتها السياسية والاجتماعية، وأبعادها المذهبية والفكرية حيث مثلها أصدق تمثيل.

---

(١) مؤسسها عبد الله بن سبأ وتسمى (الغلاة) لأنهم غالوا فيما خلعوه على علي من الصفات فزعموا أنه لم يمت .. راجع العقد الفريد ج٢ ص ٤٠٤ لجنة التأليف والنشر سنة ١٩٤٨م.

(٢) مؤسسها كيسان مولى أمير المؤمنين علي وتلميذ محمد بن الحنفية ،قيل إنها سميت بذلك نسبة إلى المختار الثقفي الذى لقب بكيسان.

(٣) مؤسسها أصحاب زيد بن علي بن الحسين بن علي رضى الله عنه.

(٤) نسبة لقولهم الإمامة لعلي رضى الله عنه نصاً، أي نص رسول الله على إمامة علي باسمه ونسبه ونصبيه للناس واستخلافه.

(٥) انظر: الرؤية الفنية في شعر الشيعة والخوارج فى العصر الأموي للدكتور عبد الباقى طلبة ط ١ ص ١٣ مطبعة الأمانة سنة ١٩٩١م.

هذا ويرى دارسو الشعر الشيعي أنه ينشطر نصفين متقابلين:

الأول ما قيل قبل وأثناء وبعد موقعة صفين. الآخر: في كربلاء وأثرها واتجاهاتها فأما عن الأول فنقرأ قول سورة ابنة عمارة الأشتر:

شمِّرْ كفعل أبيك يابن عمارةَ ... يومَ الطعان وملتقى الأحزانِ
وانصر عليّاً والحسين ورهطَهُ ... واقصد لهندَ وابنها بهوانِ
إن الإمام أخا النبي محمد ... علم الهدى ومنارة الإيمانِ

فنلمس حالة الرضا والقناعة التامتين بالاختيار، والوعي والإدراك التام لمكانة علي وآله رضي الله عنهما، ودورهما الفاعل في الدعوة الإسلامية حيث لخصت مبدأ الشيعة في نقطتين هما أنه أخو النبي (ﷺ) وهو منارة الإيمان.

ونقرأ – عوداً –قول دعبل الخزاعي الذى حمل الراية على عهد العباسيين بحيث اعتمد على العاطفة التي راح يضرم وقدة حماستها في قلوب الناس، ويستنهض هممهم، للثأر لآل البيت فيقــول:

رأسُ ابن بنت محمدٍ ووصيِّهِ ... يا للرجال على قناةٍ تُرفَعُ !!
والمسلمون بمنظرٍ وبمسمَعٍ ... لا جازعٌ من ذا ولا متخشِّعُ
أيقظتَ أجفاناً وكنت لها كرًى ... وأنمت عيناً لم تكن بك تهجعُ

وأما عن الآخر: فنقرأ قول القائلة[1] في مقتل الحسين

---

(١) انظر: تاريخ الأمم والملوك للطبري ج ٦ ص ٢٩٢.

أيها القائلون جهلاً حسناً | أبشروا بالعذاب والتنكيل
كلُّ أهلِ السماءِ يدعو عليكم | من بني مالكٍ وقبيل

حيث نرى هول الفاجعة، وعظم المأساة اللذين أورثا الشعراء حزناً دفيناً، وهلعاً مكتوماً حتى تولد لديهم الإحساسُ بالإثم والرعب تولداً وصلَ إلى صميم النفس الإسلامية، وقد تم ترجمته على شكل حوادثَ، أو حكاياتٍ شعبيةٍ كوسيلة للتعزية وتسرية الهموم.

وعلى كلٍّ فالقارئ في الشعر الشيعي يرى أن هناك موضوعات جزئية نظَمَ فيها الشعراء مثل الدعوة لمذهبهم والإحساس بالظلم، وغيرها من الموضوعات التي أملتها ظروفُ العصر، ومقتضيات الدعوة، وخصوصاً الشعرَ السياسيَّ.

وغالباً ما نرى الشعر الشيعي بشكل عام يعتمد على الجدل حيثُ جاء لبيان مكانة عليٍّ من الرسول، وجهاده أعداء الإسلام، وحسن بلائه لنصرة الدين وسبقه في الإسلام وفضله وعمله.

ثالثاً: الزبيريـــون:

لقد سموا بهذا الاسم نسبة إلى عبد الله بن الزبير، وهم يرون أن خلافة معاوية صحيحة من حيثُ المبدأ، لكنها تخالف تقاليد الإسلام؛ لأنها خرجت على نظام الشورى وذلك حين أراد استخلاف يزيد من بعده.

وهنا يرى القالي أن هذا النظامَ يحيلُ إمامة المسلمين إلى ملك وراثي، وذلك في البيت الأموي، حيثُ كان عبد الله بن الزبير يرى أن يترك أمر

المسلمين بعد وفاة معاوية - شورى بينهم؛ فيختاروا لإمامتهم من يرونه أصلح القرشيين بالنهوض بها[1].

ومن شعرهم الذي ظهر فيه التشيع للزبيريين نجدُ ابن قيس الرّقيات، وهو يمدح مصعب بن الزبير بعد انتصاره على المختار، وأخذ يحرضه على حرب الأمويين في الشام فقال[2]:-

أيها المشتهي فناءَ قريشٍ	بيد الله عُمرُها والفناءُ
كيفَ نومي على الفراش ولما	تشمل الشام غارةٌ شعواءُ
إنما مصعبٌ شهابٌ من اللـ	ـهِ تجلت عن وجههِ الظلماءُ

وبالنظر للشعر في خلافة الزبيريين فقد شارك على استحياء في المعمعة السياسية حيثُ كان لواء الشعراء معقوداً على بن قيس الرقيات، وهو من أعظم شعراء العربية وقد اتسمَ شعره بالولاء والتلقائية والوضوح.

وبالنظر سريعاً إلى الأسس التى تقوم عليها سياسة الأحزاب فإنها - عدا الحزب الأموي - قد قامت على أسس دينية بحتة ..

فالخوارج أقاموا مذهبهم على أساس من المساواة بين الناس جميعاً بحيث يمكن القضاء على الأثرة السياسية التي ظهرت واضحة في احتقار الإمامة فى قريش، وتحديداً فى البيت الأموي فيها، كذلك نهج الشيعة نفس المنهج الدينى المتمثل فى الدعوة لبني هاشم، أما الزبيرون فقد كان منهجهم قائماً على إحياء الشوري فى منهج الخليفة وهو منهج ديني بحت .

---

(١) انظر: ذيل الأمالي ج ٣ ص ١٧٦.

(٢) انظر: عبيد الله بن قيس الرّقيات ص ٢٧.

العصبية القبلية وآثارها:

لقد شاع القول أن سياسة بني أمية كانت تعتمد على إثارة العصبية، والنعرات القبلية؛ لتنشغل القبائل بها، فتنصرف عن معارضة الحكم الأموي.

صحيحٌ أن جهوداً قد بُذلت في عصر بني أمية لمحاربة النعرة القبلية، وما يتصل بها من الدعوة إلى العشائر، والحمية الجاهلية والثأر، لكن التيار العصبي كان أقوى من الدولة الأموية التي لم تترسم خطةً منظمة ينتهجها الخلفاء والولاة لمحاربة العصبية، والقضاء عليها.

وبالرجوع إلى الوراء فإننا نجد الرسول يحارب العصبيات لما تحدثه من شرخٍ كبير فى الصف الإسلامى، وكذلك فعل الخلفاءُ فرأينا خطةَ عمرَ في مناهضة العصبية، والضرب على أيدى الداعين إليها .. ويقال إن زيادة ابن أمية كان يحرص في خطبه على تحذير الناس من العصبية، ومآثر الجاهلية، ويهدد ألسنتهم بالقطع، وقد سلك مسلك عمرَ فى معاقبة الشعراء الذين يهجون الناس، ويثيرون الأحقاد القبلية في أشعارهم.

هذا ولقد أفلحت الدولة الأمويةُ منذ قيامها على خطةٍ مزدوجة إزاء القبائل العربية، وتقوم هذه الخطة على تآلف القبائلِ واصطفاء رؤسائها بالمال والهبات. وغيرها من جهة ، ومن جهة أخرى على إزلال رؤوس القبائل وتجريدهم من سلطانهم القبلي. وبالفعل ضمنت رؤساءُ القبائل وجردتهم من سلطانهم القبلي إلى صفها، وضمنت ولاءهم لهم فى أغلب الأحوال...[١].

---

(١) راجع: العصبية القبلية وأثرها فى الشعر الأموي لإحسان النص ص ٢٣٨ دار اليقظة الحديثة لبنان.

وبذلك أحيا الأمويون العصبية، واعتصموا بها؛ لتعينهم على مآربهم في تدعيم السياسة الأموية للملك الأموي؛ وليغلبوا بها كل من لم تجد معه وسائل الدهاء والمال والسلاح وكان لهذا أثره فى الحياة الاجتماعية حيث بقى المجتمع يعيش في ظلال الجهل وتبعاته(١).

على كلّ فإن تاريخ الدولة الأموية جاء صورةً للصراع الحزبي، وكان هذا الصراع معول هدمٍ في بناء الدولة منذ فجر حياتها.

فالحزب الخارجي يكفرُ الدولة الأموية، والشيعيّ يخرج عليها تحت شعار الدعوة لآل البيت، والطريق إلى ذلك الحروب...!

والزبيريون ناصبوا الدولة العداء، وسيطروا على معظم ولاياتها فترة من الزمان.

وبهذا فكان لكلّ وجهةٌ هو موليها ثم كان الحصاد المر المتمثل في التحلل والتشتت والضياع بل السحق والاقتلاع لوحدة الصف الإسلامي.

---

(١) انظر: أدب السياسة في العصر الأموي للدكتور/ أحمد الحوفي ط ٥ ص ٤٣٢ دار نهضة مصر.

ثانياً: الاجتماعيـــة:

ما من شك أن الحياة الاجتماعية فى هذا العصر قد نشطت بعد ما عرفت مظاهر الملكية طريقها إلى الاستقلال والذيوع بحيث اقتنى الخلفاء والأمـراء الـدور والقصور، وأقاموا الحجاب، وبعثوا المناقب العربية وكل ما يعينهم على تحقيق مآربهم من جديدٍ رغبةً في السيادة الأموية، وإرساءِ دعائمها.

ولأن الحياة الأموية تنوعت، وتشكلت على حسب بيئاتها؛ من هنا فإن الحديثَ سيقتصرُ على أربع مجتمعاتٍ شكلت أغلبها حياة الأمويين بوضوح وذلك لنقف على أوجه التشابه في حياة هذه المجتمعات تلك التي شكلت الحياة الأموية فضلاً عن إبراز ملامحها وخصائصها اللتين يتغذى عليهما الأدبُ.

أولاً: الحجـــاز:

تعَد الحجاز من أكثر الأمصار الإسلامية قحطاً وجدباً وذلك لظروفه البيئية والطبيعية القاسية حتى إن اتصالهم بالعالم الخارجي كان محدوداً حيثُ إن العلاقات التجارية هي التي أوجدته لكنه بظهور الإسلام قد اختلفت الحال كثيراً فرأينا مكة منبعاً للإسلام والمدينةَ مقراً للحكم الأموي .. وكان من نتاج ذلك أن نشأت فيهما حركةُ علميةّودينية ممثلة في جمع الأحاديث النبوية الشريفة، وتفسير القرآن يضافُ إلى هذا وذاك الحياةُ المترفة اللاهية التي جاءت إحدى ثمار الفتوح الإسلامية التى بدأت أيام أبي بكر، وبلغت أوج ذيوعها في أيام عمرَ بحيثُ جلبت الكثير والكثير من الثروات الضخمة «فعمت الحضارة وارتقت الأذواق، وبنُيت القصور حتى أصبحت تنافس دور دمشق وقصورها»[1].

---

(١) انظر: البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٤٩ – ٢٥٠.

وكان طبيعياً أن تتغير معيشة القوم تحت هذا الثراء الفاحش لا سيما مع الرقيق الوافد إليها مما جُلِبَ إلى مكة، وكذلك الجوارى الفارسيات والروميات اللائى سبين فى الفتح. كلّ هذا أفلح فى تخليق أشكال جديدة من التقاليد؛ لذا رأينا الحجاز يحيا حياة ترف ولهو وقد تمخض عنهما أن تبلورت نظرية الغناء التي وضع -أسسها، وحمل لواءها - العربُ والموالي الوافدون على هذه البيئة الذين يحملون ميراث أجيالٍ متعاقبةٍ من الرقى والتطور والحضارة الماديةِ التي لم ينل العرب فتاتاً منها قبل ذلك في حياتهم.

إن من أشهر الدور التى عنيَت بهذا الفنِ دارَ الثريا في مكةَ نسبة إلي الثريا من شريفات القرشيات، وصاحبة عمر بن أبي ربيعة.

ومما يجدر ذكره هنا هو أن كان لانتشار الغناء في هذه البيئة الأثرُ الأكبر فى الحياة الاجتماعية في ظهور المرأة العربية، واختلاطها بالرجل وذلك «لصرف الفتيان عن الخلافةوالإمارة والسياسة إلى اللهو الغناء»[1].

هذا من جانب.. على جانب آخر فإن «مشاركة المرأة جاءت محاولة للظهور والتفوق على المرأة الوافدة التي كثيراً ما شغلت المجتمع الحجازي من سياسة بني أمية إفساد جو المدينة الديني حتى تصرفَ الناس عنها، وعن قداستها»[2].

ثانياً: الشـــام:

لم تختلف الحال كثيراً عن جارتها الحجاز حيثُ كان مهداً لكثير من الأديان والرسالات والحضارات المختلفة تلك التي استطاعت أن تنشر تعاليم الدين السمحة هناك ...

---

(١) راجع: فجر الإسلام لأحمد أمين ص ٢١٤.

(٢) راجع : الأدب في العصر الأموي للدكتور عبد الرحمن علي ط ١ ص ٤٣.

ولِمَ لا وقد وقف أهل الحجاز بجانبهم حتى تحقق لهم ما أرادوا من نقل السلطانِ من الحجاز إلى دمشقَ حيثُ تم هذا أيام معاوية الذي اتخذ من دمشق عاصمةً للدولة الإسلامية، ومقراً للخلافة في العهد الأموي وقد قصدها العلماء والشعراء طمعاً في الهبات، ورغبةً في التنافس الشريف بينهم

كذلك فإن القبائل العربية التى كانت هناك سرعان ما امتزجت حتى انصهرت مع بقيةِ طوائف المجتمع، وكانت الحياة هادئة على الرغم من فرض الضرائب الباهظة على الممتنعين من الدخول في الإسلام إلا أن الحريات أعطت كلّ ذي حقّ حقّه ...

لكن الظاهرة التي كادت تقوض دعائم هذا المجتمع - وتعصف بكيانه هي - اضطهاد العرب للموالي وهذه مثلبة أفرزتها جرثومة العصبية التى حاربها الإسلامُ حينما سوّى بينَ الطبقات؛ «لذا شعروا أنهم فى أحطّ المراتبِ الاجتماعيةِ في البيئة الإسلاميةِ فاستنكروا هذا الوضع، ولم يقتنعوا به بحال»[١].

من هنا فلقد كان الشعور بالاضطهاد لدى الموالي هو موضع الإصغارِ والسخرية في نفوسهم، والحط من منزلتهم وتجاهلهم.

نذهب إلى الفن في الشام فنقول: إن الحال لا تختلف عن جارتها الحجاز حيث انتقلت إليهم النظريةُ بعامل الاتصال الدائم بينهما، هذا بالإضافة إلى أن خلفاء بني أمية قد انتدبوا هؤلاء المغنين حيث بالغ في

(١) انظر: الأدب في العصر الأموي للدكتور عبد الرحمن علي ط ١ ص ٤٣.

ذلك يزيد بن عبد الملك فكان يرسل فى طلب المغنين والمغنيات من الحجاز، واشترى مغنيتين مشهورتين إحداهما بأربعة آلاف دينار وهى حبابة والثانية بعشرين ألفاً وهى سلامة القس[١].

أما عن حال الشعر في الحجاز والشام فإنه كان يُنظّم أغلبه للمغنيين، وعن شكله الفني يصفه الدكتور شوقي ضيف قائلاً: إنه الشعر الغنائي[٢] بمفهومه الكامل حيث استطاع الشعراء أن يتشربوا الحضارة الجديدة بذوقٍ خالصٍ ويعبرون عنها، فما كان منهم إلاّ أن ترجموا هذه الحضارة الاجتماعية الراقية أحسنَ تصوير، ولم يعد الشاعر يعبر عن آلامه وبؤسه من ضنك العيش فحسب بل راح يصور لنا قصة حبه وهيامه بمحبوبته حتى صارت النساء القبلةَ التي يتضرعون إليها صباح مساء؛ كي تجودَ عليهم بالبركات والإلهامات والفيوضات.

هذا ولقد فتنت المغنيات بهذا الشعر أيّما إعجاب. فها هو الأحوص يجسد لنا عشقه، وغرامهُ الفائق بالمغنيات.. فهذه حبابة .. وتلك سلامة، وهناك عقيلة وهنالك الذلفاء .. ناهيك عما لم يصل إلينا عنه من أخبار أخرى فلربما تكون هناك حبيبات أخريات باقيات في خيطها من عقد الهوى ... على كلّ فإنه يقول[٣]:-

إذا أنتَ لم تعشقْ ولم تدرِ ما الهوى　　　فكنْ حجراً من يابسِ الصّخرِ جلْمَدا

(١) انظر: التطور والتجديد فى الشعر الأموى لشوقى ضيف ط٤ ص ١٠٢.

(٢) لعله يقصد به شعر الغزل الخالص الذى ينصرف الشاعر فيه إلى التعبير عن عواطفه الوجدانية تعبيراً صادقاً دون أن يعرج فيه إلى مديح أو هجاء مثلما كان يفعل الجاهليون والإسلاميون.

(٣) انظر: التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ١٠١.

حيثُ يقصر حياته على العشق والهوى؛ لأنهما مكمنُ المتعة كما أنهما الشيئان اللذان يميزان الإنسان عن سائر المخلوقات. من هنا فإن الشاعر يعتبرُ الهوى والعشق هبتين لا يحظى بهما كل الناس بل تتفاوت حظوظهم فيه.

كذلك ظهر – بجانب الغزل اللاهي الذي انفرد به الحجازيون – لونٌ قد صدر عن البادية بحيثُ أطلق عليه مؤرخو الأدب الغزلَ العذري[١]، وهو غزلٌ يظهرُ فيه الحبّ العنيفُ بحيثُ يصور ما يلاقيه المحب من عذابات وعقباتٍ في سبيل الظفر بهوى الحبيبة، وقد اجتمع فيه العطاء والحرمان معاً.. إنه ناتج عملياتٍ عاطفيةٍ ملتهبة تشتعل حيناً، وتهدأ حيناً لكنها – في مجملها – تفرز آلاماً ومتاعبَ وأوهاماً لا حصرَ لها .

هذا ونكاد نزعم أن هذا اللون قد ظهر في البادية نتيجة لقحل الطبيعة، والاندثار الحضاري، والقمح الجنسي، والفقر المدقع الذي يكاد يلصقُ صاحبهُ بالتراب هذا بالإضافة لعوامل أخرى هيأت نفسيةَ العربي لإصدار هذا اللون،وعندما نزل القرآن تأثروا به خاصة فنشأ في نفوسهم شئ من التقوى فعكفوا على أنفسهم فاستخلصوا منها هذا الشعرَ العفيفَ.

لكن الدكتور شوقي ضيف يرى أن الإسلام لم يحرمّ زواجَ المحب لمحبوبته ، وأمّا ما لجأوا إليه إنما هي عقدة اصطنعوها اصطناعاً لكي يبرزوا جانبَ المعاناة في فنهم.

---

(١) راجع: في الشعر الإسلامي والأموي لعبد القادر القط حيث أفرد باباً مستقلاً لهذا الفن وراجع: قراءة في الأدب الإسلامي والأموي لعبد العزيز الموافي حيث أفرد فصلاً مستقلاً عن نشأة الغزل بالحجاز.

هذا ويصور مجنون ليلى قصة حبه اليائس الذي لا يستطيع المحبُّ فيه من لقاءِ صاحبته فيقول:

وأحبسُ عنكِ النفسَ والنفسُ صبّةٌ   بذكراكِ والممشى إليكِ قريبُ

وبشكلٍ عامٍ فلقد اختلف النظم، فلم يعد كما كان قديماً إذ رأينا أسلوبه يميل فيه الشعراء إلى السهولة والبساطة من حيثُ استخدام الألفاظ، كما دارت موضوعاته حول الحب وأحداثه. ومن حيث الكم فلقد كثرت المقطوعات..! ربما لأن هذا كان يلائم الغناء الذي تطلب أوزاناً قصيرةً وخفيفة؛ كي يتاحَ لهم أن يمدوا أشعارهم بكل ما يبغون من درر الألحان، ويواقيت الألحان التي تشعُ في النفس سروراً.

ثالثاً: العـــراق:

يعد العراقُ أسبق الأقاليم، وأكثرها ريادةً في المضمارين المدني والحضاري – حيث تدفقت عليه وترعرعت على ضفاف نهريه دجلة والفرات – أعظم حضاراتِ الأمم السابقة سواءٌ أكانت بابليةً، أو أشورية، أو كلدانيةً مضافاً إليها حضارتا الفرس والروم.

لقد نشأت هذه الحضارات جنباً إلى جنب تتمازج حيناً، وتتلاقي حيناً آخر، وفي كلٍّ أنتجت حضارة مثلى، وكنوزاً فضلى، وبخاصةٍ عندما استولى عليها العربُ في عهد عمر وقد اُختطت كلٌّ من الكوفة والبصرة .. وهناك بذرَ العَربُ بذور العصبية القبلية، وكانت اليمنية المتحفزة، والمضرية البدوية تمثلان الجزأين الكبيرين منذ الجاهلية ..

وفى العهد الأموي توافدت عليها ثلاثة عناصر: الأول الفرس، الثانى: سكان البلاد الأصليين[1] من عناصر شتى مسحيين وصائبة ويهود وبوذين. الأخير: يمثل بعض القبائل العربية من ربيعة ومضر، والعرب الذين جاءوا على شكل هجرات، وقد تأثرت بالحضارات آنذاك

هذا ولم يحدث التمازج المطلوب بين هذه العناصر كلها بسببين:

الأول: العصبية القبلية التي حملتها معها- أو جلبتها إلى العرب – القبائل الوافدة.

الآخر: كثرة الفتن والحروب التى ماجت بها العراق؛ لأنها كانت مركز المعارضة حيث قامت فيه الأحزاب السياسية كالخوارج والموالى والشيعة..

من هنا فلقد كان قوام حياتهم الاجتماعية العصبيات – وما يتصل بها من لهو وعبث وعنف هذا ولم يستطع الإسلام درءها؛ لذا فإنه يمكننا القول بأن المجتمع العراقي تضمنته ثلاث طبقات: الاستقراطية .. والعامة .. والأجانب وهم الموالي أكثر سكان البصرة عدداً حيث يعزى إليهم الفضل الكبير على الإسلام والعروبة وقد تمتعوا بنظام اجتماعي متميز.

وبالنظر لهذا التقسيم فإن العراق قد رفض التسوية التي أقرها الإسلام بين الشعوب والقبائل وغالباً ما كانت تقوم العصبيات بين الأصول والجرائم الكبيرة كما كانت تقوم بين الفروع الصغيرة والشعب.

من هنا فإن الشعراء كانوا يتفاخرون ويتهاجون حتى إن الهجاء اتخذ في العصر الأموي أشكالاً أقوى عما كان عليه فى الجاهلية حتى تحولت

---

(١) انظر: فجر الإسلام ص ١٠٠.

الأسواق الأدبية إلى ميادين للمبارزة والمفاخرة وخصوصاً الموالي الذين راحوا يمتدحون أنفسهم ... ولمَ لا وأن حملة العلم والفكر والثقافة فيهم، فقد ظهرت الشعوبية التى يفضل الأعجمي – بمقتضاها – جنسه على العربي.

من الشعراء الذين اشتهروا بهذه النزعة إسماعيل بن يسّار النسائي الذي يقول[1]:

ربّ خالٍ متوّجٍ لى وعمّ ... ماجدٍ مُجتدًى كريم النصابِ
إنما سمّيَ الفوارس بالفر ... سِ مضاهاةَ رفعة الأنسابِ
فاتركى الفخر يا أمام علينا ... واتركى الجَورَ وانطقى بالصوابِ
واسألى إن جهلتِ عنا وعنكم ... كيف كنا فى سالف الأحقابِ
إذ نربّى بناتِنَا وتدسّو ... نَ سفَاهاً بناتكم فى الترابِ

رابعاً: نجد:

وفيها عاش أهلها كما يعيش آباؤهم وأجدادهم الجاهليون عيشة شظفٍ وحرمان، صحيح أن الدين الجديد أحدث سمواً في نفوسهم ورفعة في تفكيرهم، ورسوخاً فى عقيدتهم، وكل هذا أثر على فنهم.

لقد كانت بادية نجد تقدم الغزل العفيف الذي يتسم بالعفة والطهارة والتسامي لأن الإسلام رقق نفوسهم وصفاهم من أدران الجاهلية.

والناظر في الشعر النجدي سواء أكان صادراً عن عذرة أو بني عذرة فإنه كان يمنع الشاعر العاشق صاحبته من هذا نقرأ لمجنون ليلى قوله:

(١) انظر: التطور والتجديد فى الشعر الأموي ص ١١٦.

يسمّو بني المجنون حين يَرَونَني　　نعَم بي من ليلى الغداة جنون

من هذا الغزل نقرأ قول مجنون ليلى:

وقولـــه:

أقول لأصحابي هي الشمس ضوؤها　　قريب ولكن في تناولها بعدُ

من خلال عرضنا لما سبق فإنه يمكننا القول بأن الشعر في العصر الأموي مثّل الحياة على اختلاف طوائفها وطبقاتها، وتطور مع تطورها أي نبض بدقات حياتهم المضطربة السريعة، وقد اختمرت ونضجت ملامحه الإبداعية.

والعرب بعصبيتهم، وموقفهم الاضطهادي من الموالي وقريش بترفها، وكثرة الغناء فيها كل هذا قد دفع الموالى إلى شعوبيتهم، الشعر الأموي ترجم كلّ هذا حق ترجمةٍ بشفافيةٍ وتلقائية.

وهذه التحولات قد غذتها عوامل عديدة أهمها: امتزاج حضارات الأمم المختلفة، وتأثر العرب بها، وأخذهم عنها حيث ظهرت فى الشام والحجاز لظروف سبق أن أشرنا إليها بحيث شاع اللهو الترف وكان على رأسها فن الغناء حتى «ليخيل لمن يتصفح كتاب الأغانى أنه لم يعد للناس في مكة والمدينة من عمل سوى الغناء حتى العباد والفقهاء ....»[1].

من هنا فلقد نشأ مجتمع جديد كان من ظواهره أن هذا الملك الظليل في أفياء الحضارة، وعظمة السلطان من كل الأنحاء إلى رحابه كان لجلب المنافع واستغلال النفوذ ...

---

(١) انظر: التطور والتجديد في العصر الأموي ص ١٠٢.

ثالثاً العقليـــة:

من نافلة القول أن نقر – ونحن مطمئنون – بأن الإسلام كان له أكبر الأثر، وبالغ الدفع في انتقال الأمة العربية من طور البداوة والارتجال إلى طور الحضارة – انتقالةً كان من نتائجها أنه فتح كثيراً من البلدان والأمصار التى تحظى بموروث عقلي، ومع الامتزاج الفكري استفادت الأمة العربية من الثقافات الأجنبية التي كانت مبثوثةً فى العراق والشام، وتفاعلها مع تعدد مصادرها من فارسية وهندية ويونانية وغيرها مما أنتج مجتمع البصرة المختلط، كذلك فإن الحياة الأموية كانت انعكاساً حقيقياً لأوضاعها السياسية والاجتماعية بحيثُ كانت التيارات المتصارعة تبثّ –بدورها ضروباً مختلفة من التيارات الفكرية التي تمثل كل واحدة التناقض في المجال الاجتماعي، لذا فلقد كان هذا العصر فاتحة التمدن الإسلامي، أو الدولة الإسلامية؛ لأن الإسلام كان ديناً دولة هذا أولاً.

ثانياً: أنه فى هذا العصر ظهرت حركات علميةٌ كثيرة، تأتي فى مقدمتها العلوم الشرعية حيث كانت الحجاز موطنها، واللسانية بالعراق والشام وبذلك كانت المجامع الأولى-لتقعيد العلم بمكة والمدينة-أهم مراكز الثقافة العربية الإسلامية منذ الهجرة ثم دمشق عاصمة الأمويين، ومنارة العلم والثقافة والأدب بحيث عنى بها خلفاء الأمويين وأمراؤهم منذ معاوية وحفيده خالد بن يزيد اللذين بذلا مجهوداً شخصياً أوجدا العلوم من عدم، وجعلا لها – في العربية – حظاً وافراً.أما العلوم الإسلامية فلقد تولى أمرها العلماء من الصحابة والتابعين الغيورين على إرث الأمة الإسلامي ولغته وتثقيفه وذلك

بتعلم القرآن، ورواية الحديث الشريف بحيث انتشروا في عواصم البلاد المفتوحة شرقاً وغرباً يعلمون الناس أصول هذه العلوم، ويرفعون من قواعدها حتى غمرت الحركة العلمية كل مكان، كما أقبل الموالي تحدوهم الرغبةُ الشديدةُ في تعلم كل ما يلقى عليهم؛ ليرفعوا من كفاءتهم العلمية في نظر الفاتحين، وليثبتوا أنهم أممٌ لها ظلالٌ وروافدُ الحضارات السابقة، كما أُسست أكبرُ مدرسة فقهية. وكان الفقهاءُ من عربٍ وموالٍ قد أخذوا يشرعون للناس أمور دينهم ودنياهم، وكان للقياس أثرٌ كبيرٌ في المسائل الفقهية حتى تميزت العراق بكثرة استعمالها للقياس، بينما انفرد أهل الحجاز بغلبة الحديث عليها هذا ولقد كان الاختلاف وسيلة للتلاحم والتلاقح، ومجالاً لاقتراع الأبكار، واختراع الأفكار في شتى مناحي المعرفة ودروب العلم، كما أخذت تتكون في هذا العصر خاصة بذور علم الحيل[1] الذي شاع عند فقهاء الأحناف، وكان أهم جانب طبق فيه جانب الأيمان حيث أشار إليه جرير في بعض نقائضه:

ولا خيرَ في مالٍ عليهِ أليةٌ ولا في يمينٍ غيرِ ذاتِ مخارمِ

ثالثاً: نشطت أبحاث العقيدة وقد ظهرت معها مقدماتُ علم الكلام، وفيها ظهرت فرقة المرجئة التي ترى الحكم على مصير الناس إلى ربهم حتى لو أهملوا الفروض الدينية، ولا يستطاع الحكم على أحدهم بخطأ هذا ولقد كان المذهبُ مثاراً لمناظرات وميداناً لمجادلات كثيرة في العراق، وبخاصة في الكوفة مقر الشيعة..

(١) الحيل هو علم يقوم على اتساع المخرج الذي يمكن أن يخلف من يقع في أشكال دينية.

من الذين بثوا فى شعرهم آراء المرجئة ثابت بن قُطنة الذي نشأ في العراق حيث يقول[1]:

نُرجي الأمور إذا كانت مشبّهة	ونصدقُ القول فيمن جارَ أو عَنَدا
المسلمون على الإسلام كلهم	والمشركون أشتوا دينهم قدداً
ولا أرى أن ذنباً بالغٌ أحداً	م الناس شركاً إذا ما وحّدوا الصمدا
وما قضى الله من أمرٍ فليس له	ردٌ وما يقض من شيء يكن رشدا
كلّ الخوارج مخط فى مقالته	ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما عليّ وعثمانٌ فإنهما	عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا

إنهم لا يحكمون على الأمور بالظاهر، كما أنهم لا يكفرون أحداً المسلمين فضلاً عن هذا وذاك فإنهم كانوا يرجئون الحكمَ على عثمان وصاحبه عليّ؛ من هنا فلقد سموا مرجئة ..

والواضح أن الأبيات اشتملت على آراء المرجئة ومفهومها لمسائل الدين.

نعود فنقول: إذا كانت الكوفة قد عرفت بتقدمها الملموس في مجال المناقشة والمناظرة لهذا العصر فإن البصرة عرفت بمحاوراتها ومجادلاتها في مسألة القدر. هذا ويعد الحسن زعيم القائلين فيها.

كما ظهر في مجالس عبد الملك كثير من شُعَب القول بالقدر ،كشعبة العدل، وأن الله لا يظلم أحداً وهي تتصل بمبدأ حرية الإرادة وأن كل إنسان يُجزىَ حسب عمله وكان الحسن يؤمن بهاء.

(١) انظر: التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ٧٦.

ويقال أن ذا الرُّمة كان يأخذ بمذهب القدرية بينما يأخذ رؤبة بمذهب الجبرية ومما جاء عنه أَنّ قال إسحق بن سويد قال: «أنشدني ذو الرمة وله:

وعينان قال اللهُ كونا فكانتا فعُولان بالألباب ما تفعل الخمر

فقلت له : هلا قلت فعولين فأجاب لو قلت: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر كان خيراً لك، يريد أن يعرفه أنه راغب عن فكرته في الجبر»(١) .

من هنا فلا شذوذ ولا غرابة أن يكون بنو أمية ليسوا بمعزل عما يدور في بيئتهم من نهضةٍ فكريةٍ وعلميةٍ كبرى فى مجال العلوم الشرعية واللسانية والعربية حيث صَوّرَ شعرهم كلّ ما يدورُ فى بيئاتِ الفقهاءِ، وعلماء الكلام؛ لأن الحياة كانت مجالاً للبحث والعمل. وعلى كلّ شاعر أن ينغمس في بحر الحياة وأن يدلو بدلوه بحيث لا ينفصل عن الواقع، ومسايرة الأحداث بشكلٍ أو بآخر.

فامتلاء المساجد بالمناقشات والمناظرات والمشاحنات والمحاورات أكبرُ دليلٍ على مواكبة الشعراء للحركة الفكريةِ .. صحيحٌ كثر الانقسامُ فى صفوف الشعراء مع كثرة الفرق من شيعة وخوارج حتى احتدم اللجاج بين هؤلاء الشعراء جميعاً وقد أثرت المجادلات على طرق تفكيرهم، ولعل

---

(١) انظر: التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ٧٩ .، والجبرية نسبة إلى الجبر وهو تثبيت وقوع القضاء والقدر، والإجبار فى الحكم، يقال: أجبر القاضي الرجل على الحكم إذا أكرهه عليه، وقيل الجبرية: هم الذين يقولون أجبر الله عباده على الذنوب أي أكرههم ومعاذ الله أن يكره أحداً على معصيته ! ولكنه علم ما العباد – انظر اللسان مادة «جبر».

نقائضَ جريرَ والفرزدق قد جاءت نتاجَ المناظرات والمحاورات التي غذتها وطورتها الحياةُ الجدليةُ .. حياةُ العراق وما انبث فيه من حوار واستدلال.

من هنا فإنه يمكننا القول بأنه عقلية الشاعر الأموي اختلفت تمام الاختلافِ عن عقلية الشاعر القديم الذى لم يحظ بما حظى به الأموي الذى استوعبت دائرة ومحيط فكره أشياء لم يكن للجاهلي حظ بمعرفتها من قبل فهو الذي طور النقائض ورسخها، حيثُ كان شاعراً وكاتباً دوّن شعره، وشعر غيره؛ كي يدرس ويحلل ويحاور ويناظر ويشاور حتى تستريح نفسه لا ليستبين أمره كما أنه تعلق بمعرفة المعاني الجاهلية، وأخضعها للدرس المنظم على نحو ما كان المحدثون والفقهاء، وأصحاب الكلام في العقيدة الدينية يدرسون ويبحثون، لقد أسعفته عقليته الجديدة التي بناها هذا العصرُ، وما اندمجَ فيها من جدلٍ وحوارٍ على كلّ ما أراد من تحوير وتوليد فى المعاني[1].

---

(١) انظر: التجديد والتطور في الشعر الأموي ص ٨٣.

رابعة اللغوية والأدبية:

لا شك أن عناية الأمويين باللغة والأدب قد شغلت المرتبةَ الثانيةَ فى نفوسهم على الرغم من التطورات السياسية والاجتماعية وهذا أمر طبيعي؛ لأنهما جانبٌ من جوانب الحياة فمع انتقال الخلافة إلى موطنها الجديد استتبع هذا الانفصال عدّة مظاهرَ كانت دافعةً إلى النهوض بالأدب وإبراز الحياة الأدبية هناك فى أعلى صورها، وأجمل مظاهرها.

فلكى يرسخوا دعائم ملكهم كان لابد من استدعاء ماضوية المجد التليد وهذا لن يتم إلاّ بإحياء الأدب القديم، وإعادة مكانته في نفوسهم إلى سيرته الأولى بعدما ألهت عنه الفتوحات الإسـلامية فى صـدر الإسـلام ناهيك عما «وصلت إليه الحياة الفكرية من أعلى درجات الرقي في عهد الأمويين[١] الذى أثرت فيه حضارات كثيرة وبخاصة البيزنطية وخصوصاً فى النقل والترجمة عن الحضارة البيزنطية التى لم تكن كثيرة فى العصر الأموى[٢].

ثانياً: عني الخلفاء -من بني أمية، وأمراؤهم- باللغة والأدب وإقامة مجالس لهما؛ لأن تربيتهم فى البادية، وسماعهم الكثير من شعر العرب وأخبارهم أثر فيهم. وظهر هذا الأثر فى عنايتهم بتلك المجالس، وفي تذوقهم لروائع الشعر، وإجازتهم للمجيدين ... من هنا توافد عليهم الفحول من الشعراء لمدحهم وكسب هباتهم وعطاياهم بحيث إنهم قربوا من مجالسهم كل مبرز فى الشعر والرواية.

---

(١) انظر: العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن ٨م تأليف دكتور وسام عبد العزيز ص ٤٠٦ الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٨١م.

(٢) انظر: تاريخ العرب لفليب حتى ص ٣١٩.

هذا ولقد حرص الخلفاء على اجتذاب الشعراء واتخاذهم وسيلة للتعبير عن سياساتهم ودعوتهم ،حيث كان معاوية أسبق الخلفاء إلى انتهاج هذه السياسية قبل أن تؤل إليه الخلافة[١] . فما تمتعت به شخصيته، وما حازت عليه من إمكانات فكرية ونفسية كان لها أثر بعيد الغور على الشعراء والشعر بحيث أعطى صورة صادقة لحياة عصره. لقد بالغ فى أهتمامه بالشعر حتى قال: اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم[٢] .

ولما خفه عبد الملك بن مروان أعلم خلفاء بني أمية حيث هدأت – على يديه – عواصفُ الفتن، واستقرت الأمورُ – مُلئت كتب الأدب درراً ويواقيت مشعة، وعاد على اللغة بوافر الغلات حتى أصبح مجلسه منتدًى ومنتقداً للشعر. كما صار الشعر فى عهده أكثر من أي وقت آخر، وهناك من الشواهد الأدبية التي تدل على مكانة الشعراء عند الخلفاء.

على كل فإن عصر بني أمية قد غذته روافد وتلك التغذية نجد آثارها واضحةً في ازدهار الثقافة الأدبية من لغة وشعر وأخبار جعلت الأمويين يعتزون بما خلف العرب من تراث أدبي وخصوصاً الاهتمام بالشعر الجاهلي كوسيلة لإحياء أمجاد الماضي لهم بصورة طيبة للحاضر والحرص على منزلتهم والرغبة فى العناية بحفظ أنسابهم[٣] .

إنهم لم يكتفوا بتشجيع الشعراء فحسب بل أخذ كثير منهم يغرون بعض الشعراء وقبائلهم بالصراع الأدبي، ويصرفونهم على المشاركة في الأمور

---

(١) انظر: أدب السياسة في العصر الأموي لأحمد الحوفي ص ٢٥٧.

(٢) انظر: العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٢٩ دار الجيل بيروت.

(٣) انظر: تاريخ آداب العربية ص ١٩٧.

السياسية وعن التفكير في الخلافة فكان نتاج ذلك أن رأينا النقائض بحيث وجدنا كل شاعر قبيلة ينشد شعراً يفتخر به وبقبيلته وما كان لها من انتصارات ثم يحاول جاهداً أن يرمي القبائل المعادية لقبيلته[١] .

ثالثاً: عوداً على بدأ فلقد تفتحت قصورُ الخلفاء والأمراء والولاة لمجالس الأدب بحيث كانت تلقى فيها المدائحُ والمختار من روائع الشعر والأخبار.

هذا ولقد كانت مجالسهم تقاليد وآداباً وثورة عارمة أوقدّنارها المربد والكناسة[٢] . وقد ساروا فيها سيرة الأكاسرة والفرس – فكان مربدالبصرة سوقاً للأبل، ومحبساً للخيل بدءاً ثم أصبح مكاناً مختاراً لمفاخرات الشعراء، ومجالس الخطباء وكان يبعد عن البصرة بثلاثة أميال[٣] .

هذا ويرى أحمد أمين أنه صورةٌ معدلة لعكاظ الذى كان سوقاً للتجارة والدعوات السياسية، وسوقاً للأدب يجتمع فيه العرب من الأقطار، ويتناشدون الأشعار، ويبيعون ويشترون. وكان العصر الأموي أزهي عصور المربد بعد أن استقر أحوال العرب بعد الفتوحات فرأينا الشعراء يتفاخرون ويتباهون، وكلّ يعلي من شأن مذهبه السياسى[٤].

أما كناسة الكوفة فقد كانت إحدى ضواحيها، واتفقت مع المربد فى كونها مكاناً لمجالس الشعراء والخطباء، وأصبح هذان المكانان مثل سوق

---

(١) انظر: التطور والتجديد لشوقي ضيف ص ١٦٢ .

(٢) انظر: التاج للجاحظ ص ٨٠٧، المطبعة الأميرية.

(٣) انظر: معجم البلدان ج ٣ ص ٣٢.

(٤) انظر: فجر الإسلام لأحمد أمين ص٢١٦ .

عكاظ فى الجاهلية في المربد والذيوع وهناك اتخذ جرير والفرزدق والأخطل حلقة بأعلى مربد البصرة، يجلسون فيها، ويجلس الناس حولهم[1] وشغلَ الشعراء الأربعة بالتفاخر من قبائلهم، وفى مكة كانت المجالس الأدبية بين الشعراء تمثل أهمية كبيرة في موسم الحج، كما كانت تعقد فى المسجد الحرام. أما فى المدينة فكانت لها شهرتها الأدبية وذوقها الأخاذ بحيث تعد من أهم مراكز الثقافة العربية منذ هجرة حيث هاجر إليها النبي وعلم بها أكثر تعاليم الإسلام.

رابعاً: لقد أسهمت البيئة الأموية – لاسيما البصرة – إسهاماً حقيقياً فى المجالين اللغوي والأدبي. ففى اللغوى كان بتعليم غير العرب الأوائل لغةَ الدين الجديد، والحكام معاً حيث تعلموا مبادئ اللغة عن العرب، وأخذوا فى تسهيل مهمة تعلمها على الموالي، وذلك بوضع القواعد وتنظيم أسس اللغة التي كانت مرآة عقول أهلها، ومعرض آدابهم وأخلاقهم،وسائر أحوالهم بحيث انتشرت وزاد من انتشارها عوامل أخرى منها أنها كانت لغةَ الحكام، واللغة الرسمية للإدارة، وكانت لغة التجار العرب[2].

وبالرجوع إلى تاريخ الشام نجد لغاتٍ كثيرةً كانت منتشرةً فى الشام إذ استعملها السكان نتيجة الوقوع تحت نير الأمم التي حكمتها، وأهم هذه اللغات السريانية والعبرانية والفنيقية..

---

(١) انظر: الأغانى ج٢٠ ص ٧٩.

(٢) انظر: الأدب في العصر الأموي لعبد الرحمن علي ص ٢٧.

ومع الفتوحات ازدهرت اللغة وانتصرت انتصاراً حاسماً على غيرها، وقد أقبل الناس على تعلمها؛ لأنها سهلة التركيب، وغزيرة المادة فضلاً عن أنها لغة الديوان والدنيا معاً.

من هنا كان اللغةُ عاملاً مؤثراً في إيجاد الصلات القوية بين المهاجرين إلى الشام من العرب والفاتحين، وكذلك بني العرب وغيرهم(١) .

هذا ولقد وجد الموالي مشقةً في قراءة القرآن، وفهمه لقصور الخط العربي آنذاك في فترة ما قبل ظهور أبي الأسود الدؤلي الذي سهل المهمة بنقط المصحف، وأبرز علامات الشكل بوضع أسس النحو عامة، لذا فإن التقدم الكبير في المجال اللغوي تقرنه المصادر بجهود أبي الأسود الدؤلي، وكذلك تلاميذه أمثال يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم بحيث يرجع إليهما الفضل في إقامة الأسس العلمية للنحو العربي.

هذا ولا يفوتنا القول إن الموالي قد استعانوا بموروثهم الثقافي وطبقوا الطريقة المنهجية المنظمة التي استفادوا من ثقافتهم الفارسية وغيرها على دراسة النحو العربي.

كذلك فإن تحضر العرب المتصل – وذلك بإقامتهم بالمصر، وما نجم عنه من اتصالهم المستمر بغير العرب – أدى إلى إضعاف سليقتهم اللغوية.

فبعامل التأثير والتأثر صارت اللغة العربية لغة الدواوين، وترجمت عن الأحوال السياسية، وأصبح أثرها الأدبي قوياً قوة من أجلها احتلت مكاناً بارزاً وفائقاً من الجميع .

---

(١) انظر: الأدب في العصر الأموي لعبد الرحمن علي ص ٢٩ .

هكذا انتقل البحث عن اللغة الصحيحة إلى الصحراء لكن هؤلاء البدو سرعان ما رأوا الحاجة ماسةَ لكلامهم فغزوا المصر يمدون اللغويين بما كانوا يجدون فى البحث عنه، وأصبح المربد سوقاً رائجة لكلام البدو وغرائبهم..

ومع نهاية عصر بني أمية هدأت الفتنُ والحروبُ القبلية، وهنا رأينا فقهاء اللغة مستمرين في الاهتمام بها، وتسجيلها، والحفاظ عليها ...

وفى المجال الأدبي رأينا:-

أولاً: اتساع دائرة المعارف والعلوم الإنسانية اتساعاً استلزم أن يستقل كل فرع بنفسه، وهذا ما حدث بالفعل بحيث أصبح علماء اللغة جماعة متميزةً لها حلقاتها الخاصة بها، بجانب حلقات المحدثين ورواة الأشعار والأخبار والقراء ومن هنا ظهر التخصصُ والاستقلال.

ثانياً: ظهر الدرس النظامي والتعليمي الموسوعي في هذه المرحلة التكوينية، وقد رُسّخت وقعدت بحيثُ دفعت - مع جملة دوافع اجتماعية وثقافية - الدراسات الأدبية قدماً للأمام ففي الشام عبرت الحياة الأدبية أصدق التعبير عن حياة المجتمع بحيث يعد أول سوق نفقت فيها بضاعةُ العلم والأدب وهذا يعدُّ من مفاخرها القالدة[١].

وهنا يرى شوقي ضيف أن الشعر في الشام لهذا العصر كان بعامة شعراً طارئاً[٢] وبالرغم من ذلك فلقد كان مزدهراً؛ لما أظهروه من ذوق

---

(١) انظر: خطط الشام لكرد علي مجلد ٤ ص ٢٣ . طبعة دمشق الحديثة .

(٢) انظر: العصر الإسلامي ص ١٦٦ .

أدبي ولتملكهم زمام الحركة الأدبية والنهضة العلمية بفضل الخلفاء والقواد فأصبح الأدب من الأصالة والقوة بمكان».

وفى العراق استطاع أن ينهض الأدب ويكون له طابعه الذى يميزه عن غيره بحيثُ أسهمت المساجدُ في النهضة الأدبية وقد كان بها مراكزُ للعلم من أهمها مركز الكوفة والبصرة. وفى العصر الأموي انصرفوا عن السياسة وتوجهوا إلى الأدب حتي لا يتعرضوا لاضطهاد ولاتهم الأمويين فصبوا جل اهتمامهم في المجالين العلمي والأدبي.

لقد كانت مساجد العراق مجمعَ العواصم، وملتقى العرب والعجم، ومثابة العلم والمعرفة بحيث أدت دور المدارس. وقد صارت مسرحاً لإنشاد الشعر بحيث شهدت العراق الكثير من المفاخرات القبلية، والحزبية.

ولعل النقائض التي ظهرت على أيدى فحول الشعراء كالفرزدق وجرير ما هى إلا عاملٌ من عوامل بعث الشعر في الاتجاه المخالف لشعر الشام الذي دار أغلبه حول مدح الخلفاء ويخالف – عوداً – شعرُ الحجاز الذي مال إلى الغزل ..

القسم الأول

الشعر في العصر الأموي

الفصل الأول

(بيئات الشعر في العصر الأموي)

للشعر في العصر الأموي بيئات كثيرة ، وهى البيئة الحجازية (مكة والمدينة) والبيئة البدوية (نجد وبوادي الحجاز) ، والبيئة العراقية (الكوفة والبصرة) وخراسان ، والشام ومصر ، والمغرب والأندلس .

ولكن على الرغم من تعدد هذه البيئات وكثرتها إلا أنه يكاد لا يعتد إلا ببيئات ثلاث هى : البيئة الحجازية ، والبيئة البدوية ، والبيئة العراقية ، ذلك لأن الروافد الشعرية كانت تنبع منها ، أو قل إن أكثر التدفق الشعري كان منها ، وأما ما عداها فقد كان حظ الشعر فيها قليلاً ، نظراً لغلبة القبائل اليمنية فيها ، وهى لا تبلغ في الشعر والشاعرية ما تبلغه القبائل المضرية .

والناظر في طبيعة هذه البيئات الثلاث يرى أنها قد تغايرت وتباينت من بيئة إلى أخرى فطبيعة البيئة الحجازية تختلف عن طبيعة البيئة البدوية ، كما أن طبيعة البيئة العراقية تختلف - كذلك - عن كل من طبيعتي البيئتين السابقتين . وهذا الاختلاف بين طبائع هذه البيئات الثلاث أدى بدوره إلى اختلاف طبيعة الشعر من النواحي الموضوعية والأسلوبية من بيئة إلى أخرى .

١- البيئة الحجازية :

البيئة الحجازية بيئة غنية مترفة واسعة الثراء ولا ريب في أن هذا الثراء الذي سال في حجور الحجازيين خاصة من أهل مكة والمدينة نتيجة

لما تركه لهم آباؤهم من الصحابة ، وما تدفق إليهم من دمشق ، حيث كان الأمويون يكثرون من نثر الأموال عليهم حتى يصرفوهم عن الخلافة - لا ريب في أن هذا الثراء تبعه تبدل واسع في حياتهم وحياة أبنائهم ، فقد اتخذوا القصور وبنوها بالجص والآجر والساج وجعلوا في أعلاها الشرفات ، وليس كل ما يلاحظ في حياة الحجازيين في أثناء العصر الأموي القصور والأموال فحسب ، بل يلاحظ أيضاً الترف ، فقد طعموا وشربوا في أواني الذهب والفضة ، ولبسوا الخز والديباج والإستبرق والحلل الموشاة ، بالإضافة إلى التفنن في ألوان الطعام المختلفة ، وأنواع الطيب والعطور ، وبالغ النساء في اتخاذ صنوف الحلي والجواهر . وإذا أضفنا إلى هذا الثراء وهذا الترف اللذين عاش فيهما الحجازيون اندماج البيئة الحجازية في الحضارتين الفارسية والرومانية اندماجاً تاماً عن طريق الرقيق الأجنبي الكثير الذي حفل به منذ الفتوح - عرفنا سر تطور الحياة في الحجاز وانتقالها إلى ما يشبه حياة المدن الفارسية ومدن البحر المتوسط

ومن الطبيعي أن يكثر في هذا المجتمع المتحضر المترف الشباب العاطل الذي يريد أن يقطع أوقات فراغه الطويل في لهو برئ ، وسرعان ما قدم له الرقيق الأجنبي ما يريد من هذا اللهو ، إذ عنى بالغناء عناية بالغة ، فنراه يقبل على هذا الفن كي يرفه عن الشباب ، ونراه يفتح له النوادي في المدينة ومكة جميعاً .

ومن يقرأ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني يجده زاخراً بأسماء المغنيين والمغنيات من الموالي الذين عاشوا في مكة والمدينة مثل ابن سريج ، وابن مسجح ، وابن محرز ، وابن طويس ، ونشيط ، ومعبد ، وعزة الميلاء ، وجميلة ، وسلامة القس وحبابة ...

وهذه البيئة المترفة المتحضرة قد أثرت - ولا شك - في طبائع أهلها وأذواقهم وشعورهم ، فقد أصبح أهلها يمثلون رقة في الشعور ، ورقة في الحس ، ورهافة في الذوق ، ومن الطبيعي أن ينعكس هذا كله أثره على الشعر في تلك البيئة ، فكل من يتابع شعر الحجازيين لهذا العصر يلاحظ أن الهجاء يقل فيه قلة شديدة ، كما يلاحظ أن المديح لم يعد اللون الصلوخ في الشعر ، فإن أكثرهم لم يكن بحاجة إلى التكسب بشعره ، إنما اللون الذي يستنفدهم هو الغزل ، وهو لون يتلاءم مع رقة الحس ورقة الشعور ، أيضاً فإنه يتلاءم مع فن الغناء الجديد ، ومن ثم كان أكثر الشعراء في الحجاز لهذا العصر شعراء حب و غزل على نحو ما نعرف عند عمر بن أبي ربيعة والعرجي وابن قيس الرقيات في مكة ، والأحوص في المدينة .

ومن أهم ما يلاحظ في هذا الباب أن فن الغناء قد أثر في الشعر تأثيراً بالغاً إذ أحال شعر الحجاز إلى ما يشبه أن يكون عملاً مشتركاً بين الشعراء والمغنيين والمغنيات ، إذ كان الشاعر ينظم شعره ثم يعرضه على من حوله من المغنيين والمغنيات ليغنوا به ، فكانوا يحورون فيه حتى يتلاءم مع ألحانهم وأنغامهم .

٢- نجد :

وهى الصحراء الداخلية لجزيرة العرب ، وهى تمتد من الحجاز غرباً إلى الخليج العربي ووادي الفرات شرقاً ، وليس فيها أنهار جارية ، إنما فيها أودية تهبط فيها الأمطار ، وتنمو حولها بعض الأعشاب والمراعي .

وهذه الصحراء هي مواطن البدو أو القبائل الرحل من العرب الذين يرعون الأنعام والأغنام ، وينتقلون حول المراعي معتمدين على منتا قبه السماء لهم من المطر ، وما تنتجه الأرض من كلأ وهم في سبيل ذلك يقتتلون ويتحاربون ، وقد طبع ذلك الحياة الجاهلية في نجد بطابع الغزو والإثارة فكثرت أيام العرب وكثرت حروبهم ، وهذه الحياة غير المستقرة بسبب الحروب تارة وبسبب التنقل والهجرة تارة أخرى لم تؤهل هؤلاء البدو لحضارة ، بل جعلتهم في شبه عزلة وليس عندهم من الوقت ما يجعلهم يستقرون ويعملون في سبيل حضارة متدرجة .

وقد خلقت هذه الحياة البدوية منافسات قبلية على المراعي وظل تربص القبائل بعضها ببعض قائماً كما أشرنا آنفاً - إلا أن هذه الصراعات الدامية قد ضعفت حدتها بمجيء الإسلام الذي نهى عن الأخذ بالثأر وتحول حقه من أيدي الأفراد إلى أيدي الدولة . كما دفعت خشونتها وشظف المعيشة فيها كثيرين من شعرائها إلى الوفود على الخلفاء في دمشق والولاة في مكة والمدينة والكوفة والبصرة يطلبون نوالهم .

وقد عكست هذه البيئة القبلية البدوية آثارها على الشعر في ذلك العصر فقد فتر نشاطه وأصبح أقل مما كان عليه في الجاهلية ، بسبب إماتة الإسلام لفكرة الأخذ بالثأر التي سعرت الشعر والشعراء قديماً وما انطوى فيه من عصبيات ، ومن ثم ضعف الشعر في مجالي الفخر والهجاء .

ومن أسباب ضعف نشاط الشعر كثرة من هاجروا في الفتوح شرقاً وغرباً ، إذ كانت قبائل تهاجر برمتها - وإذا كان الشعر قد ضعف في مجالي: الفخر والهجاء ، فإنه قوي قوة واضحة في مجال الغزل ، إذ تكاثر شعراؤه كثرة مفرطة وتكاثرت قصصه الغرامية ، وخاصة في بني عذرة

وبني عامر . وقد ترجم أبو الفرج في أغانيه لكثيرين منهم مثل جميل وعروة بن حزام وقيس بن ذريح . ونلاحظ أن غزل هؤلاء النجديين من أروع صور الغزل العربي لما أشاعوا فيه من نبل وسمو وطهارة ونقاء ، ولما مسح عليه الإسلام وما أحاط به المرأة من جلال ووقار وما حرم من الآثام ظاهرة وباطنة . وكان مما ساعد عليه شعور الحزن الذي جلل أطراف الجزيرة لمن هاجروا منها عن عشائرهم وأهليهم ، والحزن دائماً يصفي النفس وينقيها ويعدها حين تتحدث عن الحب أن تشجي حقاً وأن تؤثر في النفوس تأثيراً بالغاً .

٣- العراق :

مهدت خصوبة أرض العراق وجريان نهر دجلة والفرات بين أحضانها لقيام حضارات حولها كحضارة بابل وآشور ، ومن يرجع إلى تاريخ العراق قبل الإسلام يلاحظ كثرة الغارات والهجرات إليه من الشرق تارة ومن الغرب تارة ثانية ، وكان العراق في أيدي الفرس كما كان الشام في أيدي الروم . ولما نشب الصراع بين الفرس والروم كان كل منهما تمتد عيناه إلى ما بيد الآخر ، فالرومان يريدون أن يستولوا على الرافدين وما يكونانه من الهلال الخصيب ، والفرس يريدون أن يستولوا على مستعمرتي الروم : الشام ومصر ، ومن هنا رأينا كلاً من الطرفين يحاول بكل ما وسع من قوة أن يتألف جماعة من العرب يقيم منها دولة ، فكون الروم إمارة الغساسنة في الشام على حدود سوريا ، بينما كون الساسانيون إمارة الحيرة في العراق ، ومن أجل ذلك نشأت المنافسة بين عرب العراق وعرب الشام ، بل كان كل فريق يحارب في صفوف الدولة التي يتبعها ، فعرب الشام

يحاربون في صفوف بيزنطة ، بينما عرب العراق يحاربون في صفوف الدولة الساسانية . فلما جاء الإسلام أسدل الستار مؤقتاً على هذه المنافسة وشغل اللخميون (عرب العراق) والغساسنة (عرب الشام) جميعاً بالفتوح ، وخيل إلى الناس أن نيران هذه المنافسة استحالت رمادا ، ولكن لم تكد تظهر أول فتنة في الإسلام حتى تبين أنه لا يزال تحت الرماد وميض جمر ، فاشتبكت الفتنتان في سلسلة من الحروب ، واستطاعت الشام يمثلها معاوية أن تنتصر على العراق التي كان يمثلها عليّ .

ومن هنا ظهر التنافس شديداً طوال عصر بني أمية بين أهل العراق ومن يتبعهم من فارس وبين أهل الشام ، فكان الأولون دائماً في اضطراب سياسي مستمر ، إذ كانوا معارضين للأمويين أصحاب أهل الشام ، وكانوا دائماً مع الثائرين عليهم من الأحزاب الأخرى .. والسبب في ذلك ما ذكرناه ، وهو تلك الخصومة الكامنة في نفوسهم نحو الأمويين وأنصارهم من أهل الشام ، وعبر العراق عن هذه الخصومة في حزبين كبيرين هما حزبا الخوارج والشيعة ، وملأ كل من الحزبين صفحات الأدب العربي في هذا العصر بخطبه وشعره ... وهذا الشعر كان يدور في كثير من جوانبه حول الدعوة للانقضاض على الأمويين ، يضاف إلى هذه الخصومة الحقيقية القائمة بين أهل العراق وأهل الشام أن تصادف أن أكثر عرب العراق كانوا من العدنانيين ، بينما كان أكثر عرب الشام من القحطانيين . فاتخذ الصراع بين الإقليمين شكل عصبيات قبلية بين الفرعين العربيين الكبيرين ، ولم تقف هذه العصبيات عند القحطانيين والعدنانيين ، بل انتقلت عدواها إلى كل قبيلة بل كل عشيرة ، ومن هنا اندلعت نيران خصومة شديدة بين القحطانيين والعدنانيين من جهة ، وبين شعبهم وأحيائهم من جهة ثانية .

وقد ساعد على احتدام العصبيات بين القبائل تخطيط كل من الكوفة والبصرة ، فقد خططتا تخطيطاً قبلياً ، فكل قبيلة لها خطتها .

ومن هنا أصبحت الكوفة والبصرة مسرحاً لهذه العصبيات أو لهذه السهام التي كانت تعيشها القبائل المختلفة هناك ، وتصوبها كل منها إلى صدر جارتها ، فلكل قبيلة شاعرها الذي يتغنى بمآثرها في الجاهلية في الوقت الذي يصب جام غضبه على القبائل المعادية . وهذه البيئة العراقية بما تعكسه من خصومات ومنافسات ،كالتي بين الأحزاب المعارضة للأمويين كحزب الشيعة والخوارج ، وبين الأمويين ، أو بين القبائل المتخاصمة بعضها وبعض ، كالتي بين تغلب وتميم قبيلتي الأخطل وجرير .. هذه البيئة قد أهلت الشعر العربي في هذا العصر لأن يتناول موضوعين كبيرين . أما أولهما فهذه الخصومة السياسية التي اشتعلت بين الخوارج والشيعة وبين الأمويين ، وأما ثانيهما فهذه الخصومة القبلية التي التهبت بين العدنانيين والقحطانيين ، ثم بين أعضائهم وشعبهم المختلفة ومن هنا كان الشعر العراقي لعصر بني أمية واحداً من نوعين : إما شعر سياسي وهو الذي كان يدور بين الأحزاب السياسية المختلفة وبين الأمويين ، وإما شعر قبلي ، وهو الذي يدور بين القبائل بعضها وبعض .

ومما يلاحظ أن الكوفة كانت موئل غالبية الشيعة كما أن البصرة كانت موئلاً لغالبية الخوارج ، كما يلاحظ أيضاً أن الخصومات القبلية في الكوفة لم تكن بالقدر الذي كان موجوداً في البصرة ، ولذا كان حظها من شعر الفخر والهجاء ضعيفاً في الوقت الذي نمت فيه البصرة هذين

اللونين ، بالإضافة إلى شعر المديح إذ تحول شعراؤها إلى الخلفـاء والـولاة والقواد والأجواد يمدحـونهم ويأخذون عطاياهم أما الشعر الكوفي فكان أغلبه ينصرف إلى المديح إذ مضى كثيرون يعنون بمديح الخلفـاء والـولاة والقواد بما في ذلك مديح آل البيت والإشادة بهم وبمآثرهم .

ونظرة عامة على الشعر في عصر بني أمية نراه في معظمه قائماً علـى الشعر السياسي (أو الحزبي) أو القبلي ، ومن هنا صدق من يقـول : إن الأدب الأموي أدب سياسي . وهذا يعني أن البيئة العراقية كانت حقاً البيئة الأولى للشعر والشعراء في زمن أمية ، تليها البيئة الحجازية ، الـتي تليـها البيئة البدوية .

الفصل الثاني

(رواج الشعر وازدهاره)

كان للسياسة التي انتهجها الأمويون أثرها البالغ في ازدهـــار الشـــعر ورواجه وإذا ما حاولنا أن نتلمس الأسباب التي كانت ســـبيلاً إلى هـــذا الازدهار وذلك الرواج من جزاء تلك السياسة الأموية - وجدنـــا تلـــك الأسباب كامنة فيما يأتي :-

١ - العصبية القبلية :

كانت العصبية القبلية موجودة بين العرب في الجاهلية ، فكـــل قبيلـــة تنتصر لنفسها من القبائل الأخرى فتعدد مآثرها ومحامدها وتفاخر بنفســـها بما لها من قوة وبأس وعزة وجاه ، وكان ذلك يدعوها - في أحيان كثـــيرة - إلى الانتقاص من شأن القبائل الأخرى التي تماثلها أو تضارعها عزة وبأســـا فيشرع شاعرها أو شعراؤها ألسنتهم في هجائها ونشر معايبها ، وما يلبـــث هذا الهجاء أن يجري على كل لسان ، فتقوم القبيلة المهجوة بـــالرد علـــى ذلك بالمثل .

ولم تقتصر هذه العصبية على القبائل نفسها بل انتقلت منها إلى البطون والعشائر ، ومن هنا كان العرب طوائـــف متنـــاحرة وفرقـــاً متحاربـــة ، وجماعات متفرقة حتى جاء الإسلام فأمات ما كان قائماً بينهم من عصبيات قبلية جاهلية وأحل محلها الأخوة والإخاء والمحبة والوئام ، وصهر المســـلمين جميعاً في بوتقة واحدة ، فجعلهم أمة واحدة تدعو إلى إله واحد لا شريك له ، وأصبح العرب بنعمة الإسلام إخواناً متحابين .

ولكن هذه العصبية التي أماتها الإسلام لم تلبث أن عادت من جديد قوية شرسة في ظل الأمويين ، في عهد معاوية وبنيه وعبد الملك بن مروان وأولاده حتى آخر الدولة الأموية ، فقد أحيا كثير من الخلفاء والولاة هذه العصبية ، وبخاصة أيام يزيد بن معاوية ، ويزيد بن عبد الملك وحينما نحاول تحليل هذه العصبية القبلية خلال العصر الأموي نراها تتصل بولاية العهد ، كما تتصل بالقبائل والأسر المشهورة . أما فيما يتصل بولاية العهد ، فقد كانت ولاية العهد من أسباب سقوط الأمويين وضعفهم كما كانت ظاهرة العصبية خطيرة شقت البيت الأموي ، وأساسها تعدد الولاة وحرص الخلفاء على تغييرهم ، فكان ذلك يورث الانقسام والبغضاء ، وينتقل أثره إلى القواد والعمال .. أما فيما يتصل بالقبائل (أو بالعصبيات القبلية) التي كانت شراً مستطيراً فأهمها تلك الخصومة التي كانت قائمة بين قيس وتغلب في بلاد الجزيرة والشام .

وكانت القبائل اليمنية في الشام تتعصب للأمويين ، بينما كانت القبائل المضربة في العراق تعارضهم وتعاديهم وقد أضيف إلى هذه العصبية المستعرة ما قام به طلاب الخلافة من غير العلويين في زمن عبد الملك بن مروان ، وهم آل الزبير والأزارقة وغيرهم من ثورات متعاقبة على البيت الأموي وما قد أثير في هذه الثورات من شعر يندد بالخلفاء الأمويين ويدعو إلى خلعهم ، فلا شك أن لهذه الطوائف الخارجة على الأمويين شعراء تنصرهم وتدعو لهم ، وكذلك للأمويين شعراء يستعينون بهم على اختلاف قبائلهم وبطونهم ، ومن هنا خلقت هذه العصبية بأشكالها وألوانها ثورة هائلة من الشعر العربي .

٢- سخاء بني أمية بالأموال :

قامت الدولة الأموية ، ولها أعداء يتربصون بها ، فمعظم الناس يـــرون أن هذا البيت الأموي قد انتزع الخلافة من أهله ، فالشيعة يرونهم غـاصبين للخلافة من آل البيت وأما الزبيريون فكانوا يرون أن تعـــود الخلافـــة إلى الحجاز ، وأن يتولاها أحد أبناء الصحابة الأولين لا يزيد بن معاوية ، وأمـــا الخوارج ، فكانوا يرون أن الخلافة ليست حقاً لقريش بل هي حــــق الله ، وينبغي أن يتولاها خير المسلمين تقوى وزهداً . ومن هنا كان على الأمويين إزاء المحيطين بهم أن ينتهجوا معهم سياسة الاسترضاء والتقريب والإغـــواء ، وكان من جراء هذه السياسة أن أغدقوا الأموال والعطايا على الناس تألفـــاً لقلوبهم ، لا سيما الشعراء الذين كانوا لسانهم المعبر عن مآثرهم وأمجـــادهم ولا سيما – أيضاً – أهل الحجاز من أبناء الصحابة حتى يصرفوهم عن النظر إلى الخلافة بل إن أموالهم وعطاياهم اتسعت حتى شملت أشياع العلويـــين ، ومن ثم انطلقت الألسنة وخاصة ألسنة الشعراء تمدح الأمويـــين وتذكـــر مآثرهم ، خوفاً من قطع أعطيتهم ، فضلاً عما يرجونه مــــن الجوائـــز إذا أحسنوا إرضاءهم ، وبالتالي انطلقت تلـــك الألســـنة تهجـــو أعداءهـــم والمتربصين بهم .

٣- رغبة بني أمية في الشعر :

كان الخلفاء الأمويون يتعصبون لكل ما هو عربي ، فالحكومة عربيـــة خالصة ، وفيها عصبية قرشية أحياناً وهذا التعصـــب دفـــع الأمويـــين إلى الحرص على التمسك بكل التقاليد والعـــادات العربيـــة حـــتى التقـــاليد والعادات الجاهلية التي أماتها الإسلام كالمفاخرة مثلاً ، كمـــا دفعهم هذا

التعصب إلى أحياء التراث العربي الممثل في العلوم والآداب العربية كاللغة والشعر والنثر والأيام والأنساب وأخبار العرب والغريب ، وكأن خلفاء بني أمية أرادوا بهذا الصنيع أن يعودوا بالأمة إلى حياتها الجاهلية بإحياء ذلك التراث العزيز على نفوسهم ، والذي تتمثل فيه القومية في أجلى مظهر وأوضح صورة ، لأن من سياستهم إيقاظ العصبية بين القبائل العربية ، حتى تعود قوية كما كانت أو أشد قوة .

يضاف إلى هذا الحرص على إحياء التراث العربي بجميع صوره وأنماطه أن الخلفاء الأمويين أنفسهم كانوا من أهل الأدب ومن ذوي النفوس الشعرية الحساسة ،حدّث معاوية عن نفسه قال :

"اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم ، فقد رأيتني ليلة الهرير بصفين ، وقد أتيت بفرس أغر محجل بعيد البطن من الأرض وأنا أريد الهرب لشدة البلوى فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطنابة :

أبت لي همتي وأبى بلائي ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإقحامي على المكروه نفسي ... وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمى بعد عن عرض صحيح

وكان بنو أمية يحفظون الشعر ويباحثون الشعراء وينتقدونهم ، وكثيراً ما كانوا يجمعون طائفة منهم في مجلس يقترحون عليهم أن يصفوا شيئاً ويجيزون الجيد ، أو يجمعونهم ليتفاخروا بين أيديهم ، وبلغ من عنايتهم بالشعر أنه قد يخطر لأحدهم شعر لا يعرف قائله أو يحتاج إلى تفسير ، فيكتب إلى الشاعر أو الراوية فيستقدمه من العراق إلى الشام ، كما فعل هشام بن عبد الملك إذ بعث برسالة مستعجلة إلى عامله بالبصرة أن

يشخص إليه حماداً الراوية ، فقضى حماد اثنتي عشرة ليلة في الطريق وهو خائف من تلك الدعوة المستعجلة فإذا هو يقول : " بعثت إليك لبيت خطر ببالي لم أدر من قائله "

لا عجب - لكل - ذلك أن يزدهر الشعر ويروج أمره في ظل هؤلاء الخلفاء المحبين للشعر وللشعراء ، فالأدب لا ينمو ويورق ويثمر إلا في ظل محبيه من الملوك الأمراء .

٤- النهضة العلمية والأدبية :

علمنا - فيما مضى - أن الأمويين أحبوا كل ما هو عربي ، وكان التراث العربي المتمثل في اللغة والشعر والأيام والأنساب والأخبار على القمة من ذلك ، ومن العجيب أن حركة الأحياء هذه لم تكن في العاصمة الأموية " دمشق " بل كانت في الكوفة والبصرة (العراق) وأصبحت هاتان المدينتان في هذا العصر وبعده بؤرة العلم والأدب وملتقى العلماء والأدباء والشعراء يزدحمون في المسجد أو المربد أو غيرهما للمفاخرة أو المناظرة أو المناقشة ، بالإضافة إلى اشتغال المسلمين بجمع أخبار العرب وأشعارهم وأمثالهم ، وكانت هذه النهضة باعثا على تكاثرالأندية الأدبية التي يتقاطر إليها الشعراء والأدباء لينشدوا أمام الناس ما جادت به قرائحهم وملكاتهم مديحا أو فخرا أو هجاء أو مناقضة أو ليتناولوا بالحديث في مجتمعاتهم وأنديتهم الشعر والشعراء ، وقد يتطرق الحديث إلى السؤال عن أشعر الشعراء في الجاهلية أو الإسلام ، وكثيرا ما كانوا يتناقشون في هذا الأمر ، وينتهي نقاشهم إلى تفضيل امرئ القيس وزهير والنابغة على من سواهم من شعراء العصر الجاهلي ، وإلى تفضيل جرير والفرزدق والأخطل على سائر شعراء المسلمين أيامهم ، على أنهم كثيرا ما كانوا يتخاصمون في أي هؤلاء أشعر ، بل ربما اهتم الخليفة أو الأمير فيبعث إلى بعض العلماء يسأله عن رأيه في أشعر الشعراء ، وقد كان مربد البصرة يشبه سوق عكاظ في الجاهلية .

الفصل الثالث

(العوامل المؤثرة في الشعر في العصر الأموي)

١- امتزاج العرب بالأمم الأجنبية وأثر ذلك في اللغة والشعر :

اتصل العرب بغيرهم من الأمم بحكم الفتوحات التي قاموا بها لنشر الإسلام ففتحوا العراق وإيران وخراسان والشام ومصر وبلاد المغرب ، فأخذت هذه الأمصار تتعرب نتيجة اتصال أهليها بالعرب الفاتحين ، ومن ثم لم يعد اللسان العربي خاصاً بأبناء الجزيرة وحدها ، وكان مما هيأ لتعرب هذه الأمصار نظام الولاء الذي أخذ به العرب أنفسهم في فتوحاتهم الواسعة ، فقد أدخلوا رقيق الحروب في ولائهم ، كما هيأ لتعرب هذه الأمصار امتزاج العرب والموالي في حياة مشتركة حتى في المدن التي اختطها الفاتحون لمعسكراتهم مثل البصرة والكوفة والفسطاط حيث غصت دور هؤلاء العرب الفاتحين وقصورهم بهؤلاء الموالي الذين قدموا لهم خدماتهم في الحرف والزراعة والتجارة ، كما قاموا - أيضاً - على خدمتهم حيث استخدمهم العرب في حاجاتهم ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن هذه الحياة المشتركة بين العرب والموالي قد هيأ لها أيضاً تزوج العرب بالكثيرات من إمائهم .

هذا الامتزاج الواسع بالموالي ولاء وزواجاً قد تأثرت به الموالي - كما تأثرت به العرب - فقد أخذوا في التعرب سريعاً ، فقد أخذت اللغة العربية طريقها إلى ألسنتهم لتحل محل لغاتهم التي أخذت تترك تلك الألسنة ، ولكن هذا التعرب لم يحدث سريعاً ، بل أخذ يتدرج شيئاً فشيئاً

وقد أحدث هذا الامتزاج آثاره في اللغة والشعر ، وأخذت آثاره ظواهـــر ثلاثة :

الظاهرة الأولى :

أن العرب عمدوا إلى استخدام تعبيرات سهلة حتى يفهم عنهم الموالي ، ويلوكوا ما يلفظونه بسهولة ، وفي أثناء ذلك يســـتعيرون منـــهم بعـــض الكلمات الأعجمية ، فمن ذلك أنهم كانوا يسمون المسحاة " بال " والبقلة الحمقاء (الباذروج) وملتقى أربع طرق " جهار سوك " والســـوق " وازار " والقثاء " خيارا " وتلك من الكلمات الفارسية التي جرت على ألســـنة أهل الكوفة كما جرت - أيضاً - على ألسنة أهل البصرة ، منها ما يـــروى من أن يزيد بن مفرغ حين هجا أسرة عبيد الله بن زياد في ولايتـــه عليـــها سقاه نبيذاً وحمله على دابة في ثياب مهلهلة مقروناً إلى هرة وخنزير ، وأمـــر أن يطاف به في الشوارع على هذه الصورة المزرية فتجمع حوله الصغـــار يسألونه بالفارسية : إين جيست ؟ أي ما هذا ؟ فكان يجيبهم بلسانهم :

** آب أست نبيذ أست عصارات زبيب أست سمية روسبى أست **

واست : من أفعال الكينونة ، وآب : ماء ، وسمية : أم زياد ، وروســـي : الخنزيرة . أي هذا ماء ونبيذ وعصارة زبيب وسمية الخنزيرة ، ويريد البغي.

بل إن الكلمات الفارسية دخلت - أيضاً - إلى داخل الجزيرة في المدينة مع من نزلها من الفرس ، ومن هنا سموا البطيخ : " الخربز " والســـميط : " الـــرزدق " والشطرنج : " الإشترنج "

ولم يقف استعمال العرب لهذه الكلمات الأجنبية عند اللغة اليومية بـــل تعدوهـــا إلى اســـتعمالها في الشـــعر ، ولذا نجد بعض الشعراء العرب من

أمثال الفرزدق وجرير يستعمل بعض هـذه الكلمـات ، فـالفرزدق يستخدم كلمة " البيذق " و " البياذق " المعروفة في لعبـة الشـطرنج استخداماً يدل على أنه يعرف اللعبة وما يصيب البيذق فيها حين يتقدم إلى آخر الرقعة إذ يصبح وزيراً ، يقول مخاطباً جريراً :

ونحـن إذا عدت تميم قديمها   مكان النواصي من وجوه السوابق
منعتك ميراث الملوك وتاجهم   وأنت لـدرعي بيذق في البياذق

فهو يجعله بيذقاً غير متقدم ، وها هو ذا جرير يستخدم في إحـدى أهاجيه للفرزدق كلمة " الروذق " الفارسية بمعنى الحمل المنتوف وبـره بعد سلقه ، ويستخدم معها كلمة " البيذق " الفارسية للدلالـة علـى الشيء التافه ، إذ يقول في " جعثن " أخت الفرزدق .

لا خير في غضب الفرزدق بعدما   سلخوا عجانك سلخ جلد الروذق
سـبعون والوصفاء مـهر بناتنا   إذ مـهر جعثن مثل حر البيذق

الظاهرة الثانية :

إن اللغة العربية قد أصابها من لكنات الموالي الذين خالطهم العرب وعايشوهم الشيء الكثير ، حيث إن الكثيرين منهم كـانوا يجـدون عسراً في نطق بعض الحروف العربية التي لا توجد في لغـاقم ، ومـن ذلك أن أم ولد لجرير قالت لبعض ولدها : " وقع الجردان في عجـان أمكم " فأبدلت الذال من الجرذان دالا ونطقت العجين عجانا ، وقـال بعض الشعراء في أم ولد له يذكر لكنتها "

أول ما أسمع منها في السحر   تذكرها الأنثى وتأنيث الذكر
والسوءة السوءاء في ذكر القمر

إذ كانت تنطقه الكمر .

ولكن هذه اللكنات لم تكن مقصورة على الموالي الذين كانوا يعانون من صعوبة نطق بعض الحروف العربية أي الذين لم يسلس لهم بعض النطق بالعربية ويسهل بل انتقلت آثار منها إلى ألسنة فصحاء الموالي ممن ارتقت بهم ملكاتهم إلى أفق الشعر العربي وأصبحوا يضارعون شعراء العرب الخلص فصاحة ، وبلاغة ، ومن هؤلاء زياد الأعجم ، وكان يرتضخ[1] لكنة فارسية يذهب فيها إلى إبدال العين همزة والطاء تاء والسين شينا ويروى أنه أنشد المهلب في بعض مديحه :

فتى زاده السلطان في الود رفعة إذا غير السلطان كل خليل

فقال : " زاده الشلتان "

ولم تنحصر هذه اللكنات في نطاق ألسنة الموالي فحسب ، بل جرت هذه اللكنات – أيضا – على ألسنة من كانوا ينشئون فيهم ، وخاصة من كانت أمهاتهم منهم ، إذ تسربت من هؤلاء الموالي إلى من نشئوا في أحضانهم وعاشوا بين ألسنتهم ، ومن هؤلاء عبيد الله بن زياد والي العراق إذ استبقاه أبوه مع أمه " مرجانة " حين تزوجت الفارس " شيرويه " فكان يبدل الحاء هاء والقاف كافا ، فإذا قال : أحروري أنت قال : أهروري أنت ؟ وإذا قال : قلت لك ، قال كلت لك .

الظاهرة الثالثة :

كان لا بد أن يصاحب هذه اللكنات التي جرت على ألسنة الموالي وغيرهم ممن نشئوا بين أحضانهم – لحن كثير بسبب ضعف السلائق والملكات ، ومن الأمثلة على هذا اللحن قول زياد الأعجم :

---

(١) يرتضخ لكنة فارسية : لم يخل من شئ منها .

إذا قلت قد أقبلت أدبرت كمن ليس غـاد ولا رائح

وكان القياس أن يقول : " ليس غاديا ولا رائحا "

ولم يقف أمر هذا اللحن عند ألسنة هؤلاء الموالي فحسب بل تسـوب إلى ألسنة بعض العرب أنفسهم ، ومن ثم عني خلفاء بـني أميـة بتـأديب أولادهم ، ويقال إن عبد الملك أهمل تأديب ابنه الوليد فجرى اللحن علـى لسانه ، ومما ورد من لحنه أنه نطق يوماً كلمة " لص " بضم اللام . وأنـه قال لابنه حين قُتِلَ أبو فديك الخارجي : " يا أمير المؤمنين قُتِلَ أبي فديـك " وقال مرة : " يا غلام " رُدَّ الفرسان الصادّان عن الميدان .

وقد اتسع اللحن في الكوفة والبصرة حتى لنرى الحجـاج المعـروف بفصاحته ونشأته في البادية يخاف على نفسه منه ، فيسـأل ابـن يَعْمـر : أتسمعني ألحن ؟ فقال : الأمير أفصحُ الناس ، فقال الحجاج : عزمتُ عليك أتسمعني ألحن ؟ : قال حرفاً ، فقال الحجاج : أين ؟ قال : في القـرآن ، فقال : ذلك أشنع له ، فما هو ؟ قال ابن يعمر : قُلْ إنْ كَـانَ آبـاؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله " بقراءة أحـب بـالرفع ومكانها النصب . فقال الحجاج : لا جرم لا تسمع لي لحناً أبداً ، وكـان خالد القسري - مع اشتهاره بالفصاحة - لَحّاناً ، ويروي أنه قال يومـاً : " إن كنتم رجبيون فإنا رمضانيون ".

وكان انتشار هذا اللحن على هذه الشاكلة دافعاً لكثير مـن علمـاء اللغة والنحو كي يتجردوا لتنقية اللغة مما شابها من فساد ، وكـان بعـض هؤلاء العلماء يتعرض لفصحاء الشعراء ينقدهم نقداً نحويـاً ، حـتى لـو اضطرتهم القافية إلى ذلك ، ومن هـؤلاء عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي

الذي اشتهر بمراجعاته للفرزدق فيما كان يُحدثه أحياناً من بعض شـاذات نحوية ، وما زال يراجعه حتى قال فيه بيته المأثور :

فَلَوْ كَانَ عَبْدُ اللهِ مَولى هَجَوتُه   وَلَكِـنَّ عَبْـدَ اللهِ مَوْلَى مَوَالِيَا

فتعرض له ابن أبي اسحق قائلاً : كان يحسن أن تقول مَوْلَى موالٍ

٢- الإسلام وأثره في الشعر :

لا شك في أن الإسلام أحدث أثره البين في الشعر العربي : موضوعاته وأساليبه وهذا أمر طبيعي يجري مع سنة الحياة ، إذ من غـير المعقـول ألا يحدث هذا الحدث الهائل في نفوس الناس عامة فضلاً عن المؤمنين به - تغييراً كبيراً في حياتهم وتبديلاً واسعاً في أفكارهم ومشـاعرهم ، هـذا التغيـير والتبديل ، بل هذا التأثير كان - ولا بد - يقوى ويضعف حسب نفسـية الشعراء ، كان بينهم من تعمقه الإسلام ، ومن لم يتغلغل إلى أعماقه ، علـى أنهم جميعاً كانوا يستظلون بظلاله ، وكان من حولهم الوعـاظ والنسـاك يذيعون في مختلف الأجواء عبير وعظهم ونسكهم ، سواء في المسـجد أو في مقدمات الجيوش الغازية .

ومن هنا نرى أن نفسية بعض الشعراء في عصر بني أمية قـد أظلتـها حياة روحية جديدة لم تكن مألوفة في العصر الجاهلي ، وأن الشعر الأمـوي كتب في ظلال نفسية جديدة آمنت بربها ، واستشعرت حياة تقية صالحـة فيها عبادة وتقوى ، ونسك وزهد حتى تلك النفوس التي ألفناها عاكفـة على الفسق ، ومشتهرة بالاستهتار ، فهذا الفرزدق الذي عرفنا عنه هـذا الاستهتار وذلك الفسق ، قد تأثر بالإسلام وانفعل به ، فقد حضـر هـو والحسن البصري جنازة زوجـة النَّوار ، فقـال له الحسـن وهـو بإزاء

القبر : " ماذا أعددتَ لهذا المضجع ؟ " قال شهادة أن لا إله إلا الله منـــذ ثمانين سنة. فقال له الحسن : هذا العود فأين الطُّنُب ؟ فقال في الحال:

أخـاف وراء القبر إن لم يعافنـي أشـد من القبر التهاباً وأضيقاً
إذا جـاءني يـوم القيـامة قائـد عنيف وسواق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد دارم من مشى إلى النـار مغلول القلادة موثقا
يقـاد إلى نـار الجحيم مسربلا سـرابيل قطران لباسـاً محرقا

ومن الطريف أن تجد في ديوانه قصيدة يهجو فيها إبليس ومن قوله فيها :

ألم تـرني عاهـدت ربي وأنني لبيـن رتـاج قائمـاً ومقام
على قسم لا أشتم الدهر مسلماً ولا خارجا من في سوء كلام
أطعتك يا إبليـس سبعين حجة فلما انتهى شـيبي وتم تمامي
فـررت إلـى ربي وأيقنت أنني مـلاق لأيام المنـون حمامي
ألا طالما قد بت يوضـع نـاقتي أبو الجـن إبليس بغير خطام
يظل يمنيني على الرحـل فاركاً يكون ورائي مـرة وأمامـي
يبشـرني أن لـن أمـوت وأنه سـيخلدني في جنة وسـلام

ثم يقول :

وما أنت يا إبليـس بالمـرء ابتغـي رضاه ولا يقتـادني بزمـام
سأجزيك من سوآت ما كنت سقتني إليه جروحاً فيك ذات كلام

وإذا كان الإسلام قد ألقى بظلال قوية على أمثال الفرزدق ، ورأينـا تأثره بالإسلام ، فأولى بغيرهم أن يكـون تأثرهم به أعمق وأحد ، وخاصـة من عرفوا بالتقى والعفاف ، ومـن هـؤلاء جرير ، إذ تجـد في شـعره

مظاهر كثيرة لتدينه وعفته ، ويروى عنه أنه كان يبكي حين تمر به الجنائز ، ويقول : أحزنتني هذه الجنائز . وله في زوجه أم حزرة رثاء مشهور يقول فيه :

صَلّى الملائكةُ الذين تُخُيِّروا والطّيِّبون عليك والأبْرارُ

ولم يكن أثر الإسلام مقصوراً على توجيه الشعراء نحو الموضوعات الإسلامية والجوانب الروحية كالزهد والشعر الحماسي الديني بل تعدى أثره ذلك إلى تطوير الموضوعات الشعرية القديمة المعروفة في الشعر العربي كالمدح والهجاء والغزل والرثاء وغير ذلك وأصبح القارئ - لذلك - يلاحظ الكثير من المعاني الإسلامية واضحة في تلك الموضوعات والأغراض فإذا ما جئنا - مثلاً - إلى المدح نجده في الجاهلية يضفي على الممدوح صفات الشجاعة والحلم والكرم والنجدة والمروءة وغيرها من الفضائل البدوية ، كما يضفي عليه - أيضاً - الفضائل الجسمية كالفراهة وبسطة الجسم وغيرها ، ولما جاء الإسلام توجه المدح في عصر صدر الإسلام إلى الرسول وآله وأصحابه وخلفائه وإلى الدين نفسه ، ثم استمر في العصر الأموي فتوجه إلى الخلفاء والأمراء والولاة ، ولكنه يتحول في كثير من جوانبه إلى تصوير الفضيلة الدينية في الممدوح ، ووثق هذا التصوير في مديح الخلفاء والولاة أن الحكم والدين كانا مرتبطين ارتباطاً لا ينفصم عراه ، فمضى الشعراء يتحدثون عن تقواهم ، وأنهم يقيمون ميزان العدالة السماوية بين الرعية ، ولم يلبث شعراء بني أمية أن نفذوا من ذلك إلى تمجيد الأمويين ورسم إطار ديني لكل منهم ، وكان عمر بن

عبد العزيز مثالاً حقاً للحاكم الأموي التقي ، فأكثر الشعراء من رسم إطار التقوى الذي يطيف به وبحكمه ، على شاكلة قول كثير :

وصدقت بالفعل المقال مع الذي أتيت فأمسى راضياً كل مسلم

وقد لبست لبس الهلوك ثيابها تراءى لك الدنيا بكف ومعصم

وتومض أحياناً بعين مريضة وتبسم عن مثل الجمان المنظم

فأعرضت عنها مشمئزاً كأنما سقتك مدوفا من سمام وعلقم

تركت الذي يفنى وإن كان مونقاً وآثرت ما يبقى برأي مصمم

وأضررت بالفاني وشمرت للذي أمامك في يوم من الشر مظلم

كما نجد تلك المعاني الدينية الإسلامية واضحة في مديح الشيعة لأئمتهم ، يقول أيمن بن خريم في مديح بني هاشم :

نهاركم مكابدة وصوم وليلكم صلاة واقتراء[1]

وليتم بالقرآن وبالتزكى فأسرع فيكم ذاك البلاء

كما نجدها أيضاً عند من يتشيعون للزبيريين ، فهذا ابن قيس الرقيات يمدح مصعب بن الزبير والي العراق لأخيه عبد الله فيقول :

إنما مصعب شهاب من اللـه تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك قوة ليس فيه جبروت ولا به كبرياء

يتقي الله في الأمور وقد أفلح من كان همه الاتقاء

وإذا كان المدح قد تأثر بالإسلام وبمعانيه السامية وجوانبه الراقية فإن الهجاء - كذلك - تأثر به أيضاً . فإذا كان الشعراء قد تحروا في ممدوحيهم كل القيم الإسلامية الرفيعة ومدى تمسكهم بها ، فإن شعراء الهجاء قد أخذوا يهجون خصومهم بانحرافهم عن الدين فأطالوا في وصفهم

(١) اقتراء : افتعال من القراءة

بالفسوق والبغي والطغيان كقول جرير في آل المهلب :

آلُ المهلب فرطوا في دينهم   وطغوا كما فعلت ثمود فباروا[١]

وكقول الكميت شاعر الشيعة في هجاء الأمويين ورميهم بالظلم وانتهاك الحرمات وتعطيل أحكام الدين وابتداع ما لم يأت به كتاب ولا سنة :

لهم كل عام بدعة يحدثونها   أزلوا[٢] بها أتباعهم ثم أوحلوا[٣]

كما ابتدع الرهبان ما لم يجئ به   كتاب ولا وحي من الله منزل

تحل دماء المسلمين لديهم   ويحرم طلع النخلة المتهدل[٤]

وكقول ذي الرمة في هجاء بعض طوائف القراء ، حيث رماهم بالنفاق وأنهم غير صادقين فيما يظهرون من تقوى وصلاح :

أما النبيذ فلا يذعرك[٥] شاربه   واحفظ ثيابك ممن يشرب الماء

قوم يوارون عما في صدورهم   حتى إذا استمكنوا[٦] كانوا هم الداء

مشمرين إلى أنصاف سوقهم   هم اللصوص وهم يدعون قراء

وإذا كان المدح والهجاء قد تأثرا بالمعاني الإسلامية كما أوضحنا فإن الغزل وهو أبعد الأغراض الشعرية عن هذه المعاني - قد تأثر بالإسلام وبمعانيه السامية ، بل تأثر بمفاهيمه وأفكاره ، رأينا ذلك واضحاً عند بعض الشعراء الذين رأينا ظلال الإسلام وأفكاره ناضحة على شعرهم .

ومن هذا القبيل ما نراه عند بعض الغزلين من اللجوء في شعرهم - أحياناً - إلى الضراعة والشكوى إلى الله ، مما أصابهم من تباريح الحب

---

(١) باروا : هلكوا   (٢) أزلوا : استدرجوهم بها إلى الزلل .

(٣) أوقعوهم في الوحل ، والمراد أوقعوهم في الخطأ والزلل .   (٤) المتهدل : المتدلي المسترخي

(٥) يذعرك : يخوفك يفزعك   (٦) استمكنوا : ظفروا بما يريدون

وأوصاب الهوى وذلك كقول جميل :

إلى الله أشكو لا إلى الناس حبها ولا بد من شكوى حبيب يروع[1]

ألا تتقين الله فيمن قتلته فأمسى إليكم خاشعاً يتضرع

فيا رب حببني إليها وأعطني المودة منها أنت تعطي وتمنع

ومنه أيضاً ما نراه عند بعض الشعراء الغزلين من ترديد بعض الأفكار الإسلامية ، مثل فكرة العفو والغفران وذلك كقول عمر بن ابي ربيعة :

فديتك أطلقي حبلي وجودي فإن الله ذو عفو غفور

ومثل فكرة الحلال والحرام ، والترخص في اللمم ، وذلك كقول وضاح اليمن :

إذا قلت يوماً نوليني تبسمت وقالت معاذ الله من فعل ما حرم

فما نولت حتى تضرعت عندها وأعلمتها ما رخص الله في اللمم

والرثاء - أيضاً - قد تأثر بالمعاني الإسلامية ، وأصبح الشعراء يمزجون مناقب موتاهم بالمعاني الإسلامية التي تدور حول الموت ، مثل ما ينتظر المتقين من نعيم خالد ، ومثل أن المؤمن عليه أن يرضى بقضاء الله وقدره ، لأن الموت حتم في رقاب العباد ، وكل نفس ذائقة الموت .

ومن هذا القبيل قول الضحاك بن قيس يرثي بهلولا الصفري وقد قتل :

يا عين أذري[2] دموعاً منك تهتانا[3] وابكي لنا صحبة بانوا وإخوانا

خلوا لنا ظاهر الدنيا وباطنها وأصبحوا في جنان الخلد جيرانا

***

(١) يروع : يفزع ويخوف

(٢) أذرت العين دمعها : أسالته

(٣) تهتانا : التهتان : مطر يفتر ثم يعود .

وإذا كان أثر الإسلام واضحاً في الأغراض السابقة ، فإنه كان أكثر وضوحاً في شعر الزهد والشعر الحماسي الديني ، وكثيراً ما كان يمتزج هذان الغرضان ، حيث إن بعض الشعراء كان ينظم شعره وسط صفوف المجاهدين حاثاً لهم على الاستشهاد في سبيل الله حتى يفوزوا برضوانه ، مزهداً لهم في الدنيا ، لأن متاعها قليل .

ومن هذا القبيل قول قطري بن الفجاءة :

أقول لها وقد طارت شعاعاً[1] ... من الأبطال ويحك لا تراعي

فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذي لك لن تطاعي

فصبراً في مجال الموت صبراً ... فما نيل الخلود بمستطاع

ولا ثوب البقاء بثوب عز ... فيطوي عن أخي الخنع[2] اليراع[3]

سبيل الموت غاية كل حي ... فداعيه لأهل الأرض داعي

ومن شعر الزهد قول نصر بن سيار :

دع عنك دنيا وأهلاً أنت تاركهم ... ما خير دنيا وأهل لا يدومونا

وأكثر تقى الله في الأسرار مجتهداً ... إن التقى خيره ما كان مكنونا

وأعلم بأنك بالأعمال مرتهن ... فكن لذاك كثير الهم محزونا

ومنه أيضاً قول الطرماح :

كل حي مستكمل عدة العمـ ... ـر ومود إذا انقضى عدده

عجباً ما عجبت للجامع الما ... ل يباهي به ويرتفده[4]

ويضيع الذي يصيره اللـ ... ـه إليه فليس يعتقده

يوم لا ينفع المخول ذا الثـ ... ـروة خلانه[5] ولا ولده

يوم يؤتى به وخصماه وسـ ... ـط الجن والإنس رجله ويده

---

(١) طارت شعاعاً : تفرقت وانتشرت .
(٢) الخنع : الـذل .
(٣) اليراع : الجبان
(٤) يرتفده : يكسبه .
(٥) المخول : الثري

٣- السياسة وأثرها في الشعر :

ما من شك في أنه كان للحياة السياسية إبان العصر الأموي أثرها البين والخطير في الشعر العربي ، بل إن الحياة السياسية قد غطت معظم ما قيل من شعر ، حتى قيل إن الأدب الأموي أدب سياسي نظراً لأن الكثرة الكاثرة منه قيل في أغراض سياسية .

والناظر في هذه الحياة السياسية في العصر يجدها حياة ثائرة ، إذ كان الأمويون يعدون في رأي كثير من الأمة الإسلامية غاصبين للخلافة ولقد كان الحجاز والعراق أكثر البلاد ثورة على بني أمية ، ومن ثم وجدنا فيهما فنوناً من السخط ، وألواناً من الغضب عليهم وعلى حكومتهم ، وسرعان ما تكون تحت تأثير ذاك السخط وهذا الغضب أحزاب سياسية ثلاثة ، كانت تعارض بني أمية وتخاصمهم وتدعوا إلى الانقضاض عليهم ، وهي أحزاب الزبيريين والخوارج والشيعة ، أما حزب الزبيريين : فكان يرى أن تعود الخلافة إلى الحجاز وأن يتولاها أحد أبناء الصحابة الأولين لا يزيد بن معاوية ، بينما كان حزب الخوارج في العراق يرى أن ترد الخلافة إلى العرب والمسلمين جميعاً ليولوا عليهم أكفأهم وأجدرهم بها وكان بجوارهم في العراق أيضاً حزب الشيعة وكان يرى أن ترد الخلافة إلى بني هاشم يضاف إلى هذه الأحزاب السياسية المعارضة المتمثلة في الأحزاب الثلاثة السابقة الذكر - تلك الثورات التي قامت تناوئ الحكم الأموي من أمثال ثورات عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، ويزيد بن المهلب ، وثورات الرقيق الذين كانت تعاملهم الدولة - فيما يظهر - معاملة قاسية ، تلك

الثورات التي تعددت ، مرة في عهد المغيرة بن شعبة والي الكوفة ومرة ثانية في عهد مصعب ، ومرة ثالثة في عهد الحجاج .

وكما كانت تلك الأحزاب المعارضة لبني أمية ، فقد كان هناك حزب الأمويين ، وهو ذلك الحزب الذي يؤيد الحكم ويدعو إليه . ولا شك في أن لكل حزب من تلك الأحزاب شعراءه المدافعين عن أفكاره ومبادئه ، والهاجين للأحزاب الأخرى المعارضة له ، ومن هنا كانت المعارك الشعرية تواكب المعارك الحربية ، وانخرط شعراء الأحزاب في تلك الحياة السياسية وكأن لم يعد أمامهم سوى السياسة ، من هذا كله جنى الأدب العربي في ذاك العصر ثروة شعرية هائلة .

ولقد كانت الخصومات بين الأحزاب المعارضة وبين الحزب الأموي - تبعاً لأهوائهم السياسية كما قلنا - باعثا ودافعاً لكي يقول الشاعر الذي ينتمي إلى حزب من تلك الأحزاب ما يريده من مدح فيمن يؤيده وينصره ، ومن هجاء فيمن يعارضه ويعاديه .. كما كانت المعارك الحربية التي دارت بين الأمويين وخصومهم من المؤيدين للأحزاب المعارضة من اتباع الزبيريين أو الشيعة أو الخوارج - على تعدد فرقهم - كانت هذه المعارك الحربية ، وما يعقبها من انتصار فريق على فريق وما ينتهي إليه الأمر بعد من قتل وأسر - مجالاً ، كما كانت باعثا للشعراء ومحركاً لشاعريتهم كي يصوروا بدقة تلك المعارك ، ومعرضاً للتفاخر والإشادة بالفريق المنتصر ، وسبيلاً للبكاء على من استشهدوا من خلال تلك المعارك .

ومن الوقائع الحربية التي أثارت عواطف الشعراء وحركت شاعريتهم موقعة (الحَرَّة) المشهورة التي استبيحت فيها مدينة الرسول ﷺ ثلاثة أيام ، وقد بكاها من الشعراء كثيرون ، ومنها موقعة (مَرْج رَاهِط) بالشام التي انتصر فيها الأمويون على خصومهم من قبيلة قيس أنصار الزبيريين .

كما سجل الشعراء كذلك تلك الثورات المتعددة التي قام بها الرقيق ضد الأمويين ، كما سجل الشعراء موقعة (آسَكَ) التي انتصر فيها أبو بلال مرداس الخارجي - الذي خرج في أربعين رجلاً إلى الأهواز سنة ٥٨ - على جيش ابن زياد بقيادة ابن حصن التميمي الذي خرج في جيش عدته ألفان ، فقال رجل[١] من بني تيم الله بن ثعلبة :

أألفا مؤمن منكم زعمتم ويقتلهم بآسك[٢] أربعونا

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا

هم الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة ينصرونا

وإذا نظرنا إلى شعراء الأحزاب الثلاثة المعارضة ، نجد أن الزبيريين كان لهم شعراء ولكنهم كانوا قلة ، أما الخوارج فلهم شعراء كثيرون ، وتمتلئ كتب الأدب بأشعارهم ومقطوعاتهم ، وهي تسيل حماسة وبطولة ومن أهم ما يميزهم أنهم كانوا حزباً فدائياً ، فكل منهم يقبل على الموت وكأنه طلبته أو أمنيته ، وهم يؤمنون إيماناً حقيقياً أنهم حينما يخرجون لملاقاة أعدائهم الأمويين ، فإنما يدافعون عن حقوق الله والإسلام ، ومن ثم فإن من لم يخرج حقت عليه اللعنة ، يقول الطرماح :

---

(١) هو عيسى بن فاتك الخطى .

(٢)آسك :بلد من نواحي الأهواز ، قرب أرجان ، وهي بلدة ذات نخيل ومياه ، وكانت بها وقعة الخوارج التي قيل بمناسبتها هذه الأبيات (معجم البلدان : ٥٣/١- ٥٤) .

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له إن لم أفز فوزة تنجى من النـــار
والنار لم ينج من روعتها أحــد إلا المنيب بقلب المخلص الشاري

والخوارج - في سبيل عقيدتهم التي يؤمنون بها - كـانوا يسـتصغرون الحياة ويهونون من شأنها ، يقول أحدهم - وقد قدمه الحجاج للقتل - :

ما رغبة النفس في الحياة وإن عاشت قليلاً فالموت لاحقها
وأيقنت أنهــا تعود كمــا كان براهــا بالأمس خالقها
يوشــك من فــر من منيته في بعض غــراته يوافقــها
من لم يمت عبطة[1] يمت هرماً والموت كأس والمرء ذائقها

وهكذا نجد شعر الخوارج في هذا العصر شعراً يعبر عن فدائية خالصــة فهو كله بطوله وحماسة واستبسال في سبيل العقيدة وإقبال على الموت دون خوف أو وجل .

وعلى نحو ما كثر شعراء الخوارج في هذا العصر كثر شعراء الشـــيعة يتقدمهم كثير شاعر الكيسانية والكميت شاعر الزيدية .

وإذا أخذنا نتصفح أشعار شعراء الشيعة وجدناهم محزونين على أئمتهم الذين سفك الأمويون دماءهم وقد تحولوا يبكونهم ويندبونهم بدموع لا ترقأ ولا تجف ، وربما كان هذا الطابع أهم ما يميز الشعر الشيعي في هذا العصر.

يقول سليمان بن قتة في رثاء الحسين :

مررت على أبيــات آل محمــد فلم أرهــا كعهدها يوم حلت
وكانوا رجاء ثم صــاروا رزية وقد عظمت تلك الرزايا وجلت
ألم تر أن الشمس أضحت مريضة لفقــد حسين والبلاد اقشعرت
وقد أعولت تبكي السماء لفقده وأنجمها ناحت عليه وصــلت

---

(١) عبطة : شابا

كما كان شعرهم في أحيان كثيرة يحمل الكثير من معتقداتهم وأفكارهم التي يؤمنون بها ، مثل الاعتقاد في الرجعة التي كان يعتقد فيها (كثير) أشد اعتقاد وقد كان مغاليا في التشيع ، ذلك أنه لما توفي ابن الحنفية لم يؤمن بوفاته وذهب ينادي في الناس :

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا تراه العين حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى عنهم زمانا ... برضوى عنده عسل وماء

وكان شعرهم - مع ما يشيع فيه من بكاء وعويل على آل البيت - يحمل - أحيانا - الإنذار والتهديد لبني أمية من مثل قول الفضل المطلبي حين قتل زيد بن علي ابن الحسين :

ألا يا عين لا ترقي[1] وجودي ... بدمعك ليس ذا حين الجمود
وكيف تضن بالعبرات عيني ... وتطمع بعد زيد في الهجود[2]
وكيف لها الرقاد ولم ترائي ... جياد الخيل تعدو بالأسود
بأيديهم صفائح مرهفات ... صوارم أخلصت من عهد هود
بها نسقي النفوس إذا التقينا ... ونقتل كل جبار عنيد
ونحكم في بني الحكم[3] العوالي ... ونجعلهم بها مثل الحصيد

ولم يكن شعرهم يقف عند حد البكاء على آل البيت أو التحريض

---

(١)ترقي : من رقا الدمع إذا جف وسكن . جمود العين : بخلها بالدموع

(٢)الهجود : النوم . (٣)بنو الحكم : بنو مروان بن الحكم . العوالي : الرماح .

على قتل من قتلوهم والحقد الشديد على الأمويين ، بشكل كان يحمل - أحياناً - الدعوة إلى الثورة عليهم والانقضاض على حكمهم ، وذلك مثل ما نجد عند الكميت حين ولي خالد القسري أخاه أسداً على خراسان سنة ١١٧هـ فإنه أرسل إلى أهل مرو يستحثهم على الثورة بأبيات يقول فيها:

ألا أبلغ جماعة أهل مرو   على ما كان من نأى وبعد
رسالة ناصح يهدي سلاماً   ويأمر في الذي ركبوا بجد
فلا تهنوا ولا ترضوا بخسف   ولا يغرركم أسد بعهد
وإلا فارفعوا الرايات سوداً   على أهل الضلالة والتعدي

أما شعراء الحزب الأموي فكانوا من الكثرة بحيث لا يحصون ، وتكتظ كتب الأدب العربي بهم وبأشعارهم ، وكان شعراؤهم يقررون حقهم وأفضليتهم في إرث النبوة ، وأنهم أولى قريش بهذا الإرث ، بل يرون أن الله قد اختارهم لخلقه ، يقول الأحوص في الوليد بن عبد الملك :

تخيره رب العباد لخلقه   ولياً وكان الله بالناس أعلما

ويقول عدى بن الرقاع في الوليد بن عبد الملك :

هو الذي جمع الرحمن أمته   على يديه وكانوا قبله شيعا
إن الوليد أمير المؤمنين له   ملك عليه أعان الله فارتفعا

ولم يقف الشعراء عند مديح الخلفاء فحسب بل تعدوهم إلى الولاة والقواد يقول العديل بن الفرخ العجلي يمدح الحجاج :

خليل أمير المؤمنين وسيفه   لكل إمام مصطفى وخليل
بنى قبة الإسلام حتى كأنما   هدى الناس من بعد الضلال رسول

والمقام يطول بنا لو حاولنا استقصاء الأمثلة والشواهد التي قيلت في ظل الحياة السياسية مما يدل على أن الشعر الأموي قد تأثر تأثراً بالغاً بالحياة السياسية . ويلاحظ أن حزب الأمويين كان أكثر الأحزاب شعراً وشعراء ويليه حزبا الخوارج والشيعة ، أما حزب الزبيريين فكان أقل الأحزاب شعراً وشعراء ، كما يلاحظ أن شعراء تلك الأحزاب كانوا يهتمون في شعرهم في التعبير عن أفكار تلك الأحزاب ونظريتهم السياسية أكثر مما كانوا يهتمون بمديح مؤيديهم وهجاء مخالفيهم .

٤ - الثقافة وأثرها في الشعر :

كانت الثقافة في العصر الأموي تمدها روافد ثلاثة : رافد جاهلي وثان إسلامي وثالث أجنبي ، أما الرافد الجاهلي فيبدو في الشعر والأيام ومعرفة أنساب القبائل وتقاليد الجاهلية ، وقد أقبل العرب ينهلون من هذا الجدول حتى ظهر من بينهم علماء كثيرون تخصصوا في معرفة الشعر وروايته والأنساب وتشعباتها وأخبار الجاهلية وأيامها من أمثال عبيد بن شرية راوية الأخبار اليمنية ، ود غفل بن حنظلة النسابة .

أما الرافد الإسلامي فيبدو في القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ وسيرته وغزواته ، ثم في الفتوح الإسلامية وأحداثها وحروب عليّ وخصومه ، وقد تشعب هذا الرافد شعبتين كبيرتين : شعبة تاريخية تعنى بالتاريخ الإسلامي ، أو بأخبار أهل الكتب السماوية ، وشعبة دينية تعنى

بقراءات القرآن وبالحديث الشريف وما يتصل بهما من تشريع وفقه ، وقد اشتهر من أعلام الشعبة التاريخية أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير ووهب بن منبه .. ومن أعلام الشعبة الدينية عطاء وعكرمة في مكة وسالم ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومولاه نافع وعبيد الله بن عتبة وعروة بن أذينة والزهري في المدينة ، وطاووس في اليمن ، والشعبي وسعيد بن جبير وشريح القاضي في الكوفة ، وابن سيرين والحسن البصري وقتادة ومالك ابن دينار في البصرة ، والضحاك في خراسان ومكحول والأوزاعي في الشام ، والصابحي ويزيد بن عبد الله بن البريي في مصر .

أما الرافد الأجنبي فيتمثل في المعارف والعلوم والثقافات الأجنبية المختلفة التي وقف عليها العرب نتيجة اتصالهم وملابستهم للأمم الأجنبية ، وتتمثل هذه المعارف وتلك الثقافات في جانبين : جانب تطبيقي وجانب نظري ، والأول يتمثل في نواحي العلم العملية كتخطيط المدن وعمارة المباني وطريقة استغلال الأرض وشق الترع والقنوات ... وما إلى ذلك . أما الجانب الثاني - وهو الجانب النظري - فيتمثل في الفلسفات المختلفة من يونانية وشرقية ، دينية وغير دينية .

ويعنينا هنا الجانب الثاني ، وهو الجانب النظري ، فقد كان لتأثر العرب بالفلسفات الأجنبية على اختلافها أثره الواضح في الشعر العربي وظهر واضحاً في الشعر الأموي ، كما ظهر في العصر العباسي ، حيث اتسع نطاق الترجمة ووقف الفكر العربي على تلك الفلسفات .

وقد مضى العرب يطلبون الوقوف على ما في هذه الفلسفات من أساليب الجدال ووجوه الاستدلال المنطقي ، حتى يستعينوا بها على دحض

الشبه ويدعموا جدالهم بالحجج القاطعة ، ولا سيما وقد كانوا في حاجة إلى كل ذلك وهم يجادلون النصارى وغيرهم من أصحاب الملل .

وهذا يعني أن العقل العربي دعم في هذا العصر بمواد ثقافية كثيرة ، وهو دعم نجد آثاره في ازدهار العلوم الإسلامية الخالصة : علوم التفسير والحديث والفقه ، كما نجد هذه الآثار في كثرة المناظرات التي نشبت بين الآراء المختلفة في السياسة والدين وغير السياسة والدين ، ففي مجال السياسة : رأينا أن الخوارج يثيرون الجدال في كل مكان ، وقد جعلتهم قدرتهم على الجدال واستظهار الأدلة والبراهين يختلفون ويتوزعون فرقاً من أزارقة ونجدية وصفرية وإباضية ، وكان الشيعة على شاكلتهم ينافحون عن عقيدتهم متخذين أساليب الجدال المختلفة ، فقد جادلوا أصحاب الفرق التي عاصرتهم .

وفي مجال الدين وجدنا الفقهاء يتجادلون طويلاً في مسائلهم الفقهية بين أيدي الخلفاء وفي مجالسهم العامة والخاصة كما تجادلوا طويلاً في مسائل العقيدة وسرعان ما أخذ علم الكلام في الظهور وتكونت فيه مذاهب القدرية والجبرية والمرجئة والمعتزلة ...

وما في ريب في أن العقل العربي أمدته روافد كثيرة ، مما كان له آثار بعيدة في أشعار الشعراء ، إذ كانوا مندرجين في الفرق السياسية والعقدية وما نشب بينهما من مجادلات ومناظرات فإن الناس ومعهم الشعراء كانوا يستمعون إلى هذه المجادلات والمناظرات .

***

وما يدل على تأثر الشعر بهذه الثقافات ، وتلك المعارف والفلسفات ، وما تحوي من جدال وحوار ومناظرة - ما يروي من أن (الفرزدق) كان يلزم حلقة الحسن البصري ، بينما كان (جرير) يلزم حلقة ابن سيرين . وحدث صاحب الأغاني أن رجلاً سأل الحسن البصري يوماً وعنده الفرزدق عن اليمين اللغو في الكلام من مثل لا والله ، فقال الفرزدق له : أو ما سمعت ما قلت في ذلك ؟ فقال الحسن : ما كل ما قلت سمع ، فما قلت ؟ فقال : قلت :

ولست بمأخوذ بلغو تقوله   إذ لم تعمد عاقدات العزائم

وفي ذلك ما يدل أبلغ الدلالة على صلة الشاعر الأموي بكل ما كان يجري في بينات الفقهاء .

وكما تأثر الشعراء بما كان يجري في البينات الفقهية ، تأثروا بما كان يجري في البينات الكلامية أو الفلسفية ، فها هو ذا [ثابت قطنة] يثبت في شعره آراء المرجئة الجبرية ، ويوضح أصول العقيدة التي اعتنقوها ، يقول ثابت قطنة :

نرجي الأمور إذا كانت مشبهة   ونصدق القول فيمن جار أو عندا

المسلمون على الإسلام كلهم   والمشركون أشتوا[1] دينهم قددا[2]

ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً   م الناس شركاً إذا ما وحدوا الصمدا

وما قضى الله من أمر فليس له   رد وما يقض من شئ يكن رشداً

كل الخوارج مخط في مقالته   ولو تعبد فيما قال واجتهدا

أما علىّ وعثمان فإنهما   عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا

---

(١) أشتوا : فرقوا

(٢) قددا : طرائق وفرقا

ففي هذه القطعة التي أوردناها نرى بوضوح آراء المرجئة ، فهم لا يحكمون على الأمور المشتبهة ، وهم في الوقت نفسه لا يكفرون أحداً من المسلمين على نحو ما يصنع الخوارج إذ كفروا عامة المسلمين ، ثم هم يرجئون الحكم على عثمان وعليّ .

ومن المسائل الفلسفية التي شاعت بين علماء الكلام مسألة العدل وأن الله لا يظلم الناس شيئاً ، وهي مسألة تتصل مباشرةً بحرية الإرادة ، وأن كل إنسان يجزى حسب عمله ، وإننا لنجد أثر هذه المسألة واضحاً في الشعر الذي أنشده الحجاج وهو يحتضر :

إن ذنبي وزن السموات والأر ... ض وظني بخالقي أن يحابي

فلئن من بالرضى فهو ظني ... ولئن مر بالكتاب عذابي

لم يكن ذاك منه ظلماً وهل يظـ ... ـلم رب يرجى لحسن المآب

ولقد كان شعراء بني أمية - الذين يمدحونهم وينالون جوائزهم - يأخذون بمذهب الجبرية ، لأنهم رأوا سادتهم على هذا المذهب فكانوا يتعمدون الاحتكام إليه في تقرير خلافة بني أمية ، إما عن عقيدة ثابتة ، وإما من أجل إرضائهم ، وفي كل مكان من شعر جرير والفرزدق نجد اللجوء إلى الجبر في تقرير خلافة الأمويين وأن الله كتب ذلك ، ولا مفر منه .

ومن هنا رأينا آثار هذا المذهب واضحة في شعرهم ، يقول جرير :

نال الخلافة إذ كانت له قدراً ... كما أتى ربه موسى على قدر

ويقول أعشى بني تغلب :

وإن أمير المؤمنين وجرحه ... لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

ولم يقف تأثر الشعراء بالمناظرات والمجادلات في أشعارهم عند حد كشف النحل أو توضيح الأفكار التي يؤمن بها أصحاب الفرق الإسلامية من شيعة وخوارج وأمويين ، أو التي يؤمن بها أصحاب الفرق الكلامية من جبرية ومرجئة وقدرية ومعتزلة ، كما سبق إن أشرنا ، بل أصبح تأثرهم بهذه المناظرات والمجادلات سمة من سمات تفكيرهم وطريقاً من طرائق تعبيرهم ، يدل على ذلك ما عرفناه من نقائض جرير والفرزدق وجرير والاخطل ، تلك النقائض التي تنم على خصوبة فى التفكير وإجادة في استخدام الكلمات التي تعبر عن المعاني الكامنة في النفوس وقدرة على المحاورة والمناظرة وبراعة في عرض الأدلة والبراهين ، لأن هذه النقائض لم تكن في الحقيقة سوى مناظرات عقدها الشاعران : جرير والفرزدق ، والشاعران : جرير والأخطل إذ أخذ كل من المتناقضين يحاول أن يتفوق على خصمه كما يفعل المتناظران في نحلة من النحل أو عقيدة من العقائد.

***

الفصل الرابع

الأغـراض الشـعرية

تعددت الأغراض الشعرية في العصر الأموي وتنوعت ، فكان منـها القديم الذي طرأ عليه تبدل وتغير وكان منها الجديد الذي كـان وليـد عصره . والأغراض القديمة كثيرة ، منها : الغزل ، والمـدح ، والهجـاء ، والزهد واللهو والمجون ، والأغراض الجديدة هـي : النقـائض والشـعر السياسي .

وسنتناول في هذه الدراسة الأغراض الجديدة بالإضافـة إلى الغـزل ، والمديح ، والهجاء من الأغراض القديمة .

١- الغـزل :

الغزل هو حديث الرجل عن المرأة بذكر أوصافها وسماتها من خلقيـة وخلقية ، كما يعني الكلف بالحديث عنها والتعلق بحبها ، والغـزل مـن الأغراض القديمة ، فمنذ وجد الشعر وجد الغزل ، ولكن الذي طرأ عليـه هو التجديد الذي جاء نتيجة لتغير الأزمنة وتعاور الأيام ، وكـان هـذا التجديد متمثلاً في صور متعددة ، في الصـورة الموسـيقية ، والصـورة الأسلوبية ، والصورة المعنوية .

أما الصورة الموسيقية لفن الغزل : فقد أخذت تتطور بتأثـير الغناء الذي عاصر الغزل ، تطوراً واسعاً ، إذ أصبحت كثرته مقطوعـات قصيرة وعدل الشعراء إلى الأوزان الخفيفة من مثـل الرمـل والسـريع والخفيـف والمتقارب ، والهزج والوافر ، كما عدلوا إلى مجزوءات الأوزان

الطويلة من مثل الكامل والبسيط والرجز ... حتى يعطوا للمغنين والمغنيات الفرصة كاملة كي يلائموا بين أشعارهم وألحانهم وأنغامهم .

وأما الصورة الأسلوبية : فقد أخذت - هي الأخرى - تتطور ، وتتجه نحو اصطناع الشعراء الألفاظ السهلة العذبة والعبارات الرقيقة ، وذلك نتيجة لفن الغناء ، حتى يرضوا أذواق المستمعين في هذا المجتمع المتحضر الذي يخاطبونه ، ونتيجة - أيضا - للإسلام الذي هذب الطباع ورقق الشمائل واتجه بالشعراء إلى انتقاء الألفاظ المهذبة والعبارات العفة وبذلك تخلص فن الغزل من الألفاظ البدوية الجافة ، والعبارات الوعرة الخشنة .

أما الصورة المعنوية : فقد تطورت - أيضا - وظهر هذا التطور واضحا في أن الغزل لم يعد تشبيها بالديار وبكاء على الأطلال ، كما كان الجاهليون يصنعون في غالب غزلهم ، بل أصبح - غالبا - تصويرا لأحاسيس الحب التي سكبها المجتمع الجديد في نفوس الشعراء ، فقد ظفرت المرأة في هذا المجتمع بكثير من الحرية ، فكانت تلقى الرجال وتحادثهم وبرزت للشباب في المجتمع المكي والمدني - في وقار - وكانت لا تضيق بما يقال فيها من غزل ، ومن هنا أقبل الناس رجالا ونساء على شعر الغزل ، وأخذ الشعراء يخضعون ملكاتهم وعواطفهم له ، كما يلاحظ أيضا في الصورة المعنوية كثرة الغزل القصصي عند شعراء المدن ، ولا سيما عمر بن أبي ربيعة ، بل أصبح طابع الحوار والقصص أساسيا في شعر عمر ، ولا شك في أن هذا يعطي الغزل طرافة وجدة ، إذ يشيع فيه الحياة ويجعله زاخرا بالأحاسيس والمشاعر .. كما يلاحظ أيضا تأثر الغزل في أفكاره ومعانيه بالأفكار والمفاهيم الإسلامية .

وإذا ما حاولنا أن نتلمس هذه السمات الجديدة لفن الغزل في هذا العصر وجدناها ماثلة في كثير من الشواهد والأمثلة ... أما التغيير الموسيقي الذي طرأ على الغزل فيبدو واضحا في قول عمر بن أبي ربيعة :

قل لهند وتربها قبل شحط[1] النوى غدا

إن تجودي فطالما بت ليلى مسهدا

وهو من مجزوء الخفيف ، وقوله :

لقد أرسلت جاريتي وقلت لها : خذي حذرا

وقولي في ملاطفة لزينب : نولي عمرا

وهو من مجزوء الوافر ، وقوله :

أصبح القلب مهيضا راجع الحب الغريضا

وهو من مجزوء الرمل :

كما نلاحظ التغيير الأسلوبي الذي تمثل في رقة الألفاظ وتهذيبها وفي وقار الكلمات وعفتها في كثير من أشعار الغزل خاصة عند جميل بن معمر العذري : يقول جميل :

وما زلتم يا بثن حتى لو أنني من الشوق استبكى الحمام بكى ليا

إذا خدرت[2] رجلي وقيل شفاؤها دعاء حبيب كنت أنت دعائيا

وما زادني النأي المفرق بعدكم سلوا ولا طول التلاقي تقاليا

ولا زادني الواشون إلا صبابة ولا كثرة الناهين إلا تماديا

ألم تعلمي يا عذبة الريق أنني أظل إذا لم ألق وجهك صاديا

وإني لينسيني لقاؤك كلما لقيتك يوما أن أبثك ما بيا

لقد خفت أن ألقى المنية بغتة وفي النفس حاجات إليك كما هيا

---

(١) الشحط : البعد (٢) كان العرب إذا خدرت رجل أحدهم دعا لحبيبه أو على عدوه

هذا نموذج رأينا من خلاله كيف كان اللفظ المختار في الغزل رقيقـــا والكلمة المنتقاة مهذبة ، والعبارة الشائعة عفة ، والأسلوب السائد عذبا .

والتغيير الذي طرأ على المعاني والأفكار في فن الغزل نراه بوضـــوح في تحول الغزل من مجرد التشبيب بالديار وبكاء على الأطلال - كما ســبق أن ذكرنا - إلى تصوير الأحاسيس الصادقة للحب ، وترجمة العواطف الثـائرة الوالهة . وذلك كقول (قيس بن ذريح) في محبوبته (لبنى) :

لقد لاقيت من كلفي بلبنى بلاء ما أسيغ به الشـــرابا
إذا نادى المنادي باسم لبنى عييت فما أطيق له جوابا

وقوله :

وإن تك لبنى قد أتى دون قربها حجـــاب منيـــع ما إليه سبيل
فإن نســـيم الجـــو يجمع بيننا ونبصر قرن الشمس حين تزول
وأرواحنا بالليل في الحي تلتقي ونعلـــم أنا بالنهـــار نقيــــل
وتجمعنا الأرض القرار وفوقنا ســـماء نرى فيها النجوم تجول

أما الحوار القصصي الذي لاحظناه في فن الغزل كسمة جديدة طـرأت عليه في هذا العصر فنراه واضحا في قصائد غزلية كثيرة ، خاصة عند عمـر بن أبي ربيعة .

يقول عمر بن أبي ربيعة ، مصورا شغل ثلاث أخوات به :

قالت الكبرى أتعرفن الفتى قالت الوسطى نعم هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتهـــا قد عرفناه وهـــل يخفى القمر

كما يقول - مصورا كلف المرأة به وتصديها له ، وإنما تـــدور حولـــه لعلها تجد سبيلا إليه - :

قالت لترب لها تحدثها لنفسدن الطواف في عمر
قومي تصدى له ليعرفنا ثم اغمزيه يا أخت في خفر
قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرت[1] تسعى على أثري

وأما المعاني والأفكار الإسلامية التي شعت في الغزل الأموي وتجلت في قصائده ، فتراها بوضوح في أشعار كثيرة ، ففكرة العفو والغفران - وهي فكرة إسلامية - تتجلى في قول عمر بن أبي ربيعة :

فديتك أطلقي حبلي وجودي فإن الله ذو عفو غفور

وفكرة الحلال والحرام ، والترخص في اللمم نراها في قول وضاح اليمن حين يقول :

إذا قلت يوما نوليني تبسمت وقالت معاذ الله من فعل ما حرم
فما نولت حتى تضرعت عندها وأعلمتها ما رخص الله في اللمم

****

ولقد كان للغزل شعراؤه الذين افتنوا في عرض روائعه وبدائعه ، فمنهم من كان يعبر عن حبه وهواه في غزل صريح مكشوف لا يتحفظ فيه ، بل يصرح بحبه وزياراته لمحبوبته ، بل قد لا يتورع فيه عن لفظة فاضحة أو كلمة عارية .

ومن هؤلاء الشعراء عمر بن أبي ربيعة ، والأحوص والعرجي ، ومنهم من كان يعبر عن ولهه وهيامه في غزل عف مهذب ينتقي فيه العبارة العفة واللفظة المهذبة الرقيقة ، التي ترتقي بالحب وتسمو به ...

ومن هؤلاء قيس بن ذريح ، وعروة بن حزام ، وتوبة بن الحمير ، وجميل بن معمر .

---

(١) اسبطرت : أسرعت

ومن النماذج التي تعبر عن الغزل الصريح قول عمر بن أبي ربيعة :

يقصد الناس للطواف احتسابا   وذنوبي مجموعة في الطواف

فهو هنا يكشف عما في نفسه ويظهرنا على حقيقته ، وأنه يتخذ الشباك لكل امرأة جميلة في مكة ، وتحول إلى مواسم الحج يعلن حبه إعلانا لكل امرأة ذات حسن يلقاها .

وكثيراً ما كان يكشف للقارئ في شعره عن المراسلات التي كانت بينه وبين محبوباته ، ومن ثم كثرت الرسل بينه وبينهن ، وهذه رسالة بعث بها إلى محبوبته (الثريا) :

كتبت إليك من بلدي   كتاب موله كمد

كئيب واكف العينين   بالحسرات منفرد

يؤرقه لهيب الشو   ق بين السحر[1] والكبد

فيمسك قلبه بيد   ويمسح عينه بيد

ومن الأمثلة على الغزل الصريح قول الأحوص في محبوبته (أم جعفر) الأوسية :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر   بأبياتكم ما درت حيث أدور

أزور البيوت اللاصقات ببيتها   وقلبي إلى البيت الذي لا أزور

وما كنت زواراً ولكن ذا الهوى   إذ لم يزر لا بد أن سيزور

وقوله في (الذلفاء) - وهي أمة كانت في نادي (جميلة) المغنية بالمدينة ، وقد شغف بها حبا :

---

(١) السحر : الرئة

إنما الذلفـــاء همي فليدعني من يلوم

حبب الذلفاء عندي منطق منها رخيم

حبها في القلب داء مستكن لا يريم[1]

ومنه - أيضاً - قول العرجي في محبوبته ، وقد كشف فيه عـــن حـــب صريح وإباحية ظاهرة :

قالت: رضيت ولكن جئت في قمر هلا تلبثت حتى تدخل الظلم

وقوله :

باتا بأنعـــم ليلـــة حتى بـــدا صبح تلوح كالأغر الأشـــقر

فتلازما[2] عند الفراق صبابة أخذ الغريم[3] بفضل ثوب المعسر

أما النماذج التي تعبر عن الغزل العذري فكثيرة ، منها قول عروة بـــن حزام العذري في محبوبته (عفراء) :

وإني لتعروني لذكراك رعـــدة لها بين جلدي والعظام دبيب

فوالله لا أنساك ما هبت الصبا وما أعقبتها في الرياح جنوب

ومنها قول قيس بن ذريح - وقد تولاه فزع شديد لفـــراق محبوبتـــه (لبنى) - في نعيق الغراب الذي نعق قبل رحيلها فتشائم منـــه تشـــاؤما شديدا:

لقد نادى الغـــراب ببين لبنى فطار القلب من حذر الغراب

وقـــال : غدا تباعد دار لبـــنى وتنـــأى بعد ود واقتـــراب

فقلت : تعست ويحك من غراب وكان الدهر سعيك في تباب

---

(١) لا يريم : لا يبرح (٢) تلازما : تعانقا (٣) الغريم : الدائن

٢- المديح :

المديح غرض قديم في الشعر العربي ، وقد تعود العرب منذ العصر الجاهلي أن ينوهوا في أشعارهم بأشرافهم وذوي النباهة منهم ، ويتحدثوا عن خصالهم من الكرم والشجاعة والحلم والوفاء ، والحزم ، والنجدة والمروءة وغيرها من الصفات المعنوية ، بل كانوا أحيانا يتناولون فضائلهم الجسمية كالفراهة وبسطة الجسم وغيرهما ، وقد كثر المديح في الشعر الجاهلي ، إذ كان وسيلة من وسائل التكسب ، فابتذل لذلك وتحاماه بعض الأشراف ، وقد عرف بالمديح زهير والنابغة ، والأعشي وحسان بن ثابت والحطيئة .

ولما جاء الإسلام توجه المديح من جانب شعراء المسلمين إلى الإسلام والدعوة إليه ، والانتصار له ، كما توجه إلى الرسول ﷺ وآله وأصحابه وخلفائه وفي عصر بني أمية توجه المديح إلى الخلفاء والأمراء والولاة والقواد والأجواد .

والذي يلفتنا إليه فن المديح في العصر الأموي هو أنه لم يعد ذلك المديح القديم الذي يتوخى في الممدوح ما فيه من صفات الكرم والشجاعة والمروءة .. وغيرها من الصفات المعنوية ، وما فيه من صفات جسمية كالفراهة وبسطة الجسم ، كما أسلفنا ، بل صار فن المديح في ذلك العصر يتوخى في ا لممدوح ما فيه من فضائل دينية ، فمضى الشعراء يتحدثون عن التقوى والورع والعدل ، وصارت تلك الفضائل هي الصفات التي يخلعها الشعراء على ممدوحيهم ، خاصة عند الشعراء المسلمين ...

ولا يعني الشاعر المادح أن يكون ما أسبغه على ممدوحه من فضائل دينية ، وصفات خلقية موجوداً فيه ، بل كثيراً ما يسبغ عليه من الصفات ما هو بعيد عنها والذي يحمله على ذلك إما الخوف منه أو رجاء نواله وخيره .

ومن هنا كان المديح في كثير من الأحيان نفاقاً وملقاً ، أو خوفاً وتقية ، من ذلك قول العديل بن الفرخ العجلي في الحجاج بن يوسف الثقفي :

خليل أمير المؤمنين وسيفه ... لكل إمام مصطفى وخليل

بنى قبة الإسلام حتى كأنما ... هدى الناس من بعد الضلال رسول

وقد كان لتعدد الأحزاب السياسية في العصر الأموي أثره الواضح في كثرة قصائد المديح وتنوعها ، وذلك لأن كل حزب منها له شعراؤه الذين يمدحون رؤساءه والقائمين عليه ، ويسبغون عليهم أنبل الصفات وأسمى السمات التي يتمناها كل مسلم ، من العمل بأحكام الإسلام ورعاية مصالح المسلمين ومن الشجاعة في ميادين القتال دفاعاً عن الإسلام والعمل على نصرته ...

فشعراء الأمويين تغنوا بأمجاد الأمويين وأسبغوا عليهم صفات الحكام المسلمين بما تحتوي عليه من تقوى وعدل وشورى وإخلاص لله والمسلمين ، وعمل بأحكام الإسلام والقيام عليها ...

من ذلك قول جرير في عبد الملك بن مروان :

لولا الخليفة والقرآن يقرؤه ... ما قام للناس أحكام ولا جمع

أنت الأمين أمين الله لا سرف ... فيما وليت ولا هيابة ورع[1]

أنت المبارك يهدي الله شيعته ... إذا تفرقت الأهواء والشيع

---

(١) الورع هنا : الجبان

فكـــل أمر علي يمن أمرت به | فينا مطاع ومهمـــا قلت يستمع
يا آل مروان ان الله فضلكم | فضلاً عظيماً على مَنْ دينه البدع

فعبد الملك - كما يقول جرير - عمود الدين ولولاه ما انعقدت أحكام الإسلام ولا انعقدت صلواته فهو أمين الله في أرضه وعلى عباده ، وهـــذا القرآن يقرؤه وهذه أوامره تستمد كلها منه ، وهي كلها أوامر يمن يأتيـــها الناس عن طاعة ورضا . ويقول جرير إن هذا فضل عظيم اختص بـــه الله سبحانه آل مروان ، ورفعهم به درجات فوق الناس من خوارج وشـــيعة وغيرهما ممن يبتدعون البدع في الدين . وهذه كلها عناصر دينية ...

يقول جرير في سليمان بن عبد الملك :

سليمان المبارك قد علمتـــم | هو المهدي قد وضح السبيل
أجرت من المظالم كل نفس | وأديت الذي عهـــد الرسول
صفت لك بيعة بثبات عهد | فوزن العدل أصبـــح لا يميل

فهو يصفه بالعدل ورد المظالم عن الناس ، كما يصفه بأنه مهدي مبارك ، من اتبعه سلك سبيل الهدى ، ومن تركه سلك طريق الضلال .

ويقول الفرزدق في يزيد بن عبد الملك :

ولو كان بعد المصطفى من عباده | نبي لهم منهـــم لأمر العزائـــم
لكنـــت الذي يختـــاره الله بعده | لحمل الأمانات الثقال العظائم
ورثتم خليـــل الله كـــل خزانة | وكل كتاب بالنبـــوة قائـــم
وحبلك حبل الله من يعتصـــم به | إذا ناله يأخذ به حبل سالم

وكان عمر بن عبد العزيز مثالاً للحاكم الأموي التقي ، فأكثر الشعراء من رسم إطار التقوى الذي يطيف به وبحكمه ... من مثل قول (كثير) :

وصـــدقت بالفعل المقال مع الذي　　أتيت فأمسى راضيا كل مســلم

وقد لبــست لبــس الهلوك ثيابها　　ترائى لك الدنيا بكف ومعصــم

وتومض أحيــاناً بعيــن مريضــة　　وتبســم عن مثل الجمان المنظم

فأعرضــت عنها مشمئزاً كأنمــا　　سقتك مدوفا[1] من سمام وعلقم

تركت الذي يفنى وإن كان مونقا　　وآثرت ما يبقى برأى مصمــم

وأضررت بالفاني وشــمرت للذي　　أمامك في يوم من الشــر مظلــم

فكثير يصور في عمر التقوى ، كما يصور فيه الزهد والإعراض عــن الدنيا ومتاعها الزائل ...

***

وشعراء الخوارج يتغنون بأمجاد زعمائهم ورؤسائهم ويخلعون عليــهم صفات التقوى والورع والخوف من الله ، والإعراض عن الدنيا ومتاعــها الزائل وحب الاستشهاد في سبيل الله ...

وذلك مثل قول الطرماح في الخوارج :

لله در الشــراة إنهــم　　إذا الكرى مال بالطلا[2] أرقوا

يرجعون الحنيــن آونــة　　وإن عــلا ســاعة بهم شــهقوا

خوفاً تبيت القلوب واجفة　　تكــاد عنهــا الصــدور تنفلق

ويقول عمرو بن الحصين يمدح الخوارج مصوراً خشوعهم وخشيتهم مــن النار وانكبابهم على العبادة انكبابا لا ينامون فيه إلا اختلاسا ...

كم من أخ لك قد فجعت به　　قــوام ليلتــه إلى الفجر

متأوه يتلــو قــوارع من　　آى القرآن مفزع الصدر

وشعراء الشيعة يمدحون آل البيت ويسبلون عليهم الصفات الفاضلــة ويكفي أنهم من آل بيت الرسول ، وذلك من مثل قول الكميت :

(١) مدوفاً : مزيجاً

(٢) الطلى : الأعناق ، مفردها طلية

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ولا لعبا مني وذو الشيب يلعب
ولم تلهني دار ولا رسم منزل ولم يتطربني بنان مخضب
ولكن إلى أهل الفضائل والنهى وخير بني حواء والخير يطلب
بني هاشم رهط النبي فإنني بهم ولهم أرضي مراراً وأغضب

وكقول أيمن بن خريم في مدح بني هاشم :

نهاركم مكابدة وصوم وليلكم صلاة واقتراء
وليتم بالقرآن وبالتزكي فأسرع فيكم ذاك البلاء

وعلى هذا النحو يمدح شعراء الزبيريين الزعماء الزبيريين يقول عبيد الله بن قيس الرقيات في مصعب بن الزبير :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكة ملك قوة ليس فيه جبروت ولا به كبرياء

***

ولم تكن الفضائل الدينية هي كل ما يتغنى به الشعراء ، ولا الخلق الإسلامي هو محور المديح في جميع الأحوال ، فقد كانت هناك صفات أخرى يتوخاها المادحون في مدحهم كالكرم والشجاعة وغيرهما ، فمن ذلك قول (موسى شهوات) في حمزة بن عبد الله بن الزبير واصفا كرمه وجوده :

حمزة المبتاع بالمال الثنا ويرى في بيعه أن قد غبن
وهو إن أعطى عطاء فاضلا ذا إخاء لم يكدره بمن

ومنه أيضا قول (نصيب) في مدح عبد العزيز بن مروان والي مصر :

فبشر أهل مصر فقد أتاهم مع النيل الذي في مصر نيل
يقول فيحسن القول ابن ليلى ويفعل فوق أحسن ما يقول

ومن هذا اللون قول (بكير بن الأخنس) في كرم المهالبة وجودهم :

نزلت على آل المهلب شاتيا فقيرا بعيد الدار في سنة محل
فمازال بي إلطافهم وافتقادهم[1] وإكرامهم حتى حسبتهم أهلي

ومنه أيضا قول (زياد الأعجم) يمدح عمر بن عبيد الله بن معمر والي فارس :

سألناه الجزيل فما تأبى وأعطى فوق منيتنا وزادا
وأحسن ثم أحسن ثم عدنا فأحسن ثم عدت له فعادا
أخ لك لا تراه الدهر إلا على العلات[2] بساما جوادا

وكما كان الكرم من الصفات التي جعلها المادحون محور مدحهم ، كانت السياسة الحازمة والشدة في الحكم والأخذ بشدة على أيدي العابثين من الصفات التي توخاها المادحون كذلك ، ومن ذلك قول جرير في الحجاج مادحا سياسته الحازمة الرشيدة :

من سد[3] مطلع النفاق عليكم أم من يصول كصولة الحجاج
إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا ماضي البصيرة واضح المنهاج
ماض على الغمرات يمضي همه والليل مختلف الطرائق داجي
منع الرشا وأراكم سبل الهدى واللص نكله عن الإدلاج[4]
ولقد كسرت سنان كل منافق ولقد منعت حقائب الحجاج

٣- شعر الهجاء :

والهجاء هو ذكر المثالب ونفي الفضائل ، وذلك يكون بأسلوب تهكمي يدعو إلى السخرية والضحك .

(١) الافتقاد : طلب الشيء عند غيبته : كناية عن كثرة سؤالهم عنه واهتمامه بأمره .
(٢) على العلات : على كل حال .
(٣) المطلع : المنفذ من أعلى ، أو المصعد . (٤) الإدلاج : السير ليلا .

والهجاء قديم في الشعر العربي منذ الجاهلية ، وقد أوجدت المنافسات القبلية على مياه الغدران والمراعي ، كما أوجدته الحروب المستمرة بين القبائل وبطونها وكانوا يتهاجون هجاء مرا ، ويجيء الإسلام فيحتدم الهجاء بين المسلمين والكفار ، ويقف شعراء المسلمين من أمثال حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة تحت لواء الرسول يدافعون عنه وعن الإسلام بشعرهم تجاه شعراء الكفار من أمثال : عبد الله بن الزبعري وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وضرار ابن الخطاب الذين نظموا في الرسول والإسلام قصائد هجاء مرة ، ويجد الفريقان في ظلال الأيام والحروب التي نشبت بين مكة والمدينة مثل : بدر ، وأحد ، والخندق مجالاً يطعن فيه كل منهما الآخر .

وقد كان الهجاء في الجاهلية يقف عند أفكار عامة من الجبن ، والقعود عن الثأر ، والبخل ، وعدم النجدة ، ونحوها ، وقد أضاف إليها الهجاء في صدر الإسلام الحديث عن الإيمان والكفر ، فكان شعراء المسلمين يرمون المشركين بالكفر والضلال .

ويجيء عصر بني أمية فيحتدم الهجاء احتداما شديداً بسبب العصبيات القبلية التي اشتعلت ، وبسبب تعدد الأحزاب السياسية التي انطوى تحت كل منها شعراء كثيرون ، وكان شعراء كل حزب يرمي الحزب الآخر بكل ما هو قبيح من الصفات والخصال ، مما يمكن أن نطلق عليه الهجاء السياسي .

ولقد أثر الإسلام في فن الهجاء ، كما أثر في فن المديح ، ومن ثم توخى الهاجون في هجائهم الصفات القبيحة التي ينهي عنها الإسلام وينأى بالمسلمين عنها ، كما توخى المادحون الفضائل الدينية والآداب الإسلامية في ممدوحيهم ، ومن هنا أخذ شعراء الهجاء يرمون خصومهم بانحرافهم عن الدين أو بفسقهم وفجورهم ، أو بالبغي والطغيان ، وذلك مثل قول جرير في آل المهلب ، وكان هواه مع الأمويين :

آل المهلب فرطوا في دينهم وطغوا كما فعلت ثمود فباروا

ومثل قول الكميت شاعر الشيعة في هجاء الأمويين ورميهم بالظلم وانتهاك الحرمات وتعطيل أحكام الدين ، وابتداع ما لم يأت به كتاب ولا سنة :

لهم كل عام بدعة يحدثونها أزلوا بها أتباعهم ثم أوحلوا

كما ابتدع الرهبان ما لم يجئ به كتاب ولا وحي من الله منزل

تحل دماء المسلمين لديهم ويحرم طلع النخلة المتهدل

وقد عملت بجانب هذه العصبيات ، وبجانب هذه الخلافات السياسية بين الأحزاب - أسباب شخصية كثيرة على اندلاع نيران الهجاء فمن ذلك أن يفاضل أحد الولاة أو الأجواد بين من يمدحون من الشعراء فيزيد شاعرا في جائزته على زميله أو زملائه فيغضب المفضول ، ويسقط بغضبه على من فضله ، أو أن يبطئ الممدوح على مادحه بمكافأته فيتحول إلى هجائه ، على نحو ما هجا الحزين الكناني عمرو بن الزبير بقوله :

مواعيد عمرو ترهات ووجهه على كل ما قد قلت فيه دليل

جبان وفحاش لئيم مذمم وأكذب خلق الله حين يقول

وقد يحرم ممدوح مادحا له من نواله فيسرع إلى هجائه ، علـــى نحـــو ماروى الرواة عن حجب مقاتل بين مسمع بن مالك لأبي جلدة اليشـــكري وقد تولى يهجوه ، بمثل قوله :

قرى ضيفه الماء القراح[1] ابن مسمع وكان لئيمـــا جـــاره يتذلل

وقد يمتدح الشاعر أحد العمال ويطلب إليه حاجة فلا يقضيها ، حينئذ ينتقم منه بهجائه ، كما هجا زياد الأعجم عباد بن الحسين ، حين ســـأله زياد حاجة فلم يعطه فهجاه وهجا عشيرته الحبطات طويلا ، مثل قوله :

رأيت الحمر من شر المطايا كما الحبطات شر بني تميم

وكان من أشهر شعراء الهجاء يزيد بن مفرغ ، والحكم بن عبـــدل ، وثابت قطنة .

وقد كان أكثر هجاء يزيد بن مفرغ موجها إلى زياد بن أبيه وإلى ولديه : عباد وعبيد الله ، ومن هجائه في عباد - وكان عباد طويل اللحية عريضها ، فهبت ريح فنفشت لحيته - قوله :

ألا ليت اللحى كانت حشيشا فنعلفهـــا دواب المســـلمينا

وقال - أيضا - في هجاء عباد وقد ندم على صحبته وتركه سعيد بـــن عثمان :

إن تركي ندى سعيد بن عثمـــان فتى الجود ناصري وعديدي[2]

وأتباعي أخا الوضـــاعة واللؤم لنقص وفـــوت شـــأو بعيد

وقد كان استلحاق معاوية لزياد مجالا خصبا ليزيد بن مفرغ ، فـــأخذ يهجو هذا الاستلحاق بمثل قوله :

---

(١) القراح : الخالص

(٢) العديد : لها معان كثيرة ، منها : الند والقرن ، وهو المراد هنا .

ألا أبلغ معاوية بن حـــرب مغلغلة[1] عن الرجل اليماني

أتغضب أن يقال أبوك عف وترضى أن يقـــال أبوك زاني

وأشهد أن إلك[2] من زياد كإل الفيـــل من ولد الأتان

أما الحكم بن عبدل فكان هواه مع بني أمية ، فلما دخـــل العـــراق في طاعة ابن الزبير أمر بنفيه إلى الشام فقدمها على عبد الملك وحظى عنـــده ومن ثم أخذ في تحريضه على قتال مصعب بن الزبير وهجائه ، هو وأسرته ، وله في هذا المجال أشعار كثيرة من مثل قوله :

يا ليت شعري وليت ربما نفعت هل أبصرن بني العوام قد شملوا

بالذل والأسر والتشـــريد إنهم على البرية حتف حيثمـــا نزلوا

وممن هجاهم ابن عبدل عمرو بن يزيد الأسدي صاحب شرطة الحجـــاج ، وكان شحيحاً مقترا :

جئنا وبين يديه التمر في طبق فما دعانا أبو حفص ولا كادا

أما ثابت قطنة فكان من فرسان المهلب المبرزين ، ويلتئم في ثابت هجاء العصبيات وهجاء الأسباب الشخصية ويتعـــرض بعـــض بـــني الكـــواء اليشكريين للمهلب وللأزد بالهجاء فينبري هاجيا له ولعشيرته بمثل قوله :

كل القبائل من بكر نعدهم واليشكريون منهم ألأم العرب

ومن الشعراء الذين اصطدم بهم ثابت حاجب بن ذبيان المازني التميمي ، وفيه يقول :

أحاجب لولا أن أصلك زيف وإنك مطبوع على اللؤم والكفر

وأني لو أكثرت فيـــك مقصر رميتك رمياً لا يبيـــد يد الدهر

---

(١)المغلغلة : الرسالة المحمولة من بلد إلى بلد . (٢) الإل : القرابة .

٤- النقائض :

النقائض : جمع نقيضة ، وهي القصيدة التي ينقض بها الشاعر ما قاله شاعر آخر متفقاً معه في الوزن والقافية وذلك كنقائض جرير والفرزدق ، وجرير الأخطل . والنقائض لون من ألوان الهجاء في صورة متطورة وصل إليها الهجاء في العصر الأموي ، وإذا كان الهجاء الذي كان يدور بين شعراء الأحزاب السياسية المتعارضة يمكن أن نسميه هجاء سياسياً ، فإن النقائض التي كانت بين شاعر وآخر يمكن أن نسميها هجاء أدبياً ، ذلك لأن الشاعر لم يكن يقصد بالهجاء في النقيضة الجد بقدر ما كان يقصد اللهو والتسلية وإظهار التفوق والبراعة في التعبير على خصمه ..

ومن هنا نجد أن الباعث على ظهور هذا اللون من الأدب يرجع إلى عاملين : عامل اجتماعي وعامل عقلي . أما الأول ، فمرده إلى حاجة المجتمع العربي خاصة البصرة إلى ضرب من الملاهي يقطع به الناس أوقاتهم الطويلة ، ودائماً حين تنشأ المدن تنشأ معها أوقات فراغ تبعث أهلها على أن يملئوها إما بالمدارسة والنظر العقلي وإما بلهو يختلفون إليه ، وفعلاً نهضت دراسات دينية وعقلية مختلفة ، وكان لا بد أن ينشأ بجانبها نوع من أنواع الملاهي يجد فيه الفارغون من العمل تسليتهم وإذا كانت مكة والمدينة قد أقبلتا على الغناء ووجدتا فيه حاجة أهلها من التسلية واللهو ، فإن العراق قد وجد في الهجاء الذي اشتعل بين قبائله حاجته من التسلية واللهو وشغل وقت الفراغ ، لذا انبرى الهجاءون يملأون أوقات الناس بأهاجيهم ، وسرعان ما تحولوا بها إلى نقائض مثيرة ، فشاعر قبيلة من القبائل ينظم قصيدة من القصائد في الفخر بقبيلته وأمجادها ويتعرض بخصومها من القبائل الأخرى ، فينبري له شاعر من شعراء تلك القبائل يرد عليه بقصيدة على

وزن قصيدته ورويها ، وكأنه يريد أن يظهر تفوقه عليه من ناحية المعاني ومن ناحية الفن نفسه ، ويتجمع ا لناس من حوإليهما يصفقون ويصفون ويصيحون .

أما العامل الثاني – وهو العامل العقلي – فمرده إلى نمو العقل العربي ومرانه الواسع على الحوار والجدل والمناظرة في النحل السياسية والعقدية وفي الفقه وشئون التشريع ، ومن ثم أخذ شعراء النقائض يتناظرون في حقائق القبائل ومفاخرها ومثالبها ، وكل منهم يدرس موضوعه دراسة دقيقة ويبحث في أدلته ليوثقها وفي أدلة خصمه لينقضها دليلاً دليلا ، وكأننا أصبحنا بإزاء مناظرات شعرية ، وهي مناظرات كانت تتخذ سوق (المربد) مسرحاً لها ، فالشعراء يذهبون هناك ، ويذهب إليهم الناس ويتحلقون من حولهم،ليروا من تكون له الغلبة على زميله أو زملائه.

وأشهر الشعراء الذين اشتهروا بالنقائض في الأدب العربي جرير والفرزدق التميميان ، والأول من عشيرة كليب اليربوعية ، والثاني من عشيرة مجاشع الدارمية وقد ظلا يتناظران نحو خمسة وأربعين عاما في عشيرتيهما من جهة وفي قيس وتميم من جهة ثانية ، وقد هيأت لهما هذه النقائض أن يدرسا تاريخ القبائل العربية في الجاهلية والإسلام دراسة عميقة وقد استلهما هذا التاريخ في نقائضهما بحيث تعد وثائق تاريخية طريفة .

وقد قام الهجاء في النقائض على أساس العصبيات القبلية ، تلك العصبيات التي اشتعلت في العصر الأموي واختلطت بالسياسة ، مما هيأ للنقيضة أن تخوض في تاريخ مديح الخلفاء والولاة ، بحيث أصبحت لا تحوي فخرا وهجاء فحسب ، بل تحوي كذلك مديحا ، كما تحتوي نسبا وغزلا .

والشاعر في كل هذه الموضوعات يستلهم الإسلام في معانيـــه ، كمـــا يستلهم قدرة العقل العربي الجديدة على الجدال ونقض الدليـــل بـــالدليل وقدرته على التوليد في المعاني .

ومن نقائض الفرزدق التي قالها في جرير وعشيرته نقيضته التي يقـــول فيها :

فيا عجبا حتى كليب تسبني وكانت كليب مدرجا[1] للشتائم

ويقـــف جريـــر ليرد عليه بنقيضة يتحدث فيها عن الفرزدق وفســـقه الذي اشتهر به فيقول :

لقد ولدت أم الفرزدق فاجرا وجاءت بوزواز[2] قصير القوائم

وما كان جار للفرزدق مسلم ليأمـــن قـــردا ليلـــه غير نائـــم

أتيت حدود الله مذ أنت يافع وشبت فما ينهاك شيب اللهازم[3]

تتبع في الماخور كل مريبـــة ولست بأهـــل المحصنات الكرائم

وفيها يفتخر على الفرزدق بأن الذي قتل قتيبة بن مسلم الباهلي وكيع ابن أبي سود اليربوعي ، فهو ليس مجاشعيا ، إنما هو من قوم جرير فيقول :

فغيرك أدى للخليفة عهـــده وغيرك جلى عن وجوه الأهاتم[4]

فإن وكيعا حين خارت مجاشع كفى شعب صدع الفتنة المتفاقم

لقد كنت فيها يا فرزدق تابعا وريش الذنابـــي تابع للقوادم[5]

وطلب سليمان بن عبد الملك مرة من الفرزدق أن يضرب رأس رومـــي من الأسرى ، وعرف بعض القيسيين مسبقا أن الخليفة سيطلب إليه ذلـــك فدسوا له سيفا كليلا لا يقطع فلما ضرب به لم يصنع شـــيئا في الرومي ،

(١) مدرجا : مسلكا (٢) الوزواز : الخفيف ، كناية عن قصره .

(٣) اللهازم : أصول اللحية . (٤) الأهاتم : من أشراف تميم

(٥) القوادم : الريشات الطويلة في مقدمة جناح الطائر والذنابي : ما خلفها من ريشات قصيرة

وانتهزها جرير فكان يكرر له هذا الحادث ليضحك أهل المربد عليه ، بما يصور من خوره وجبنه ، ومن ثم يقول له الفرزدق في نقيضته السابقة

فهل ضربة الرومي جاعلة لكم   أباً عن كليب أو أباً مثل دارم

فيرد عليه جرير يقول :

بسيف أبي رغوان سيف مجاشع   ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم[1]

ضربت به عند الإمام فأرعشت   يداك وقالوا محدث غير صارم

ضربت به عرقوب ناب[2] بصوأر   ولا تضربون البيض[3] تحت الغماغم[4]

عنيف يهز السيف قين مجاشع   رفيق بآخرات[5] الفئوس الكرازم[6]

وصوأر يوم نحر فيه غالب أبو الفرزدق للناس مائة بعير وقيل أربعمائة ، وكان الفرزدق كثير الافتخار بهذا اليوم ، فجلل له جرير هذه المكرمة بعار الجبن فأبوه وهو إنما يضربان بمثل هذا السيف الذي نبا في يده ، عراقيب الإبل . لا صدور الفرسان ويقول له إنك قين لا تحسن الضرب بالسيف ، بل تفزع وتهلع حين تمسك به ، وإنما تحسن الإمساك بالفئوس فهي صناعتك .

وإذا كان جرير قد اصطدم بالفرزدق وهجا كل منهما الآخر وكان نتاج هذا الهجاء هذه النقائض التي زخرت بها كتب الأدب العربي - فإن الظروف قد ساقت الأخطل شاعر تغلب ليصطدم بجرير شاعر قيس ومحاميها ، وكان الأخطل يهاجي قيسا في الحروب التي نشبت بينهما وبين قبيلته منذ موقعة (مرج راهط) وكان شعراؤها يردون عليه ، فيفحمهم بأهاجيه المقذعه .

---

(١) ابن ظالم : هو الحارس بن ظالم المري أحد فرسان قيس في الجاهلية .

(٢) الناب : الناقة المسنة . (٣) البيض : خوذ المحاربين . (٤) الغماغم : أصوات الجيوش .

(٥) أخرات : جمع خرت وهو الثقب في أعلى الفأس . (٦) الكرازم : الفئوس ضخمة الرؤوس

وللأخطل - في قصيدته (خلف القطين) التي يمدح بها عبد الملك بن مروان - هجاء مقذع في جرير (كليب) يقول الأخطل :

أما كليب بن يربوع فليس لهم ... عند التفارط إيراد ولا صدر

مخلفون ويقضى الناس أمرهم ... وهم بغيب وفي عمياء ما شعروا

الآكلون خبيث الزاد وحدهم ... والسائلون بظهر الغيب : ما الخبر ؟

وأقسم المجد حقا لا يحالفهم ... حتى يحالف بطن الراحة الشعر

وهكذا يأخذ الأخطل في هجاء جرير هجاء عنيفا مقذعا ، ففيه يذم عشيرته راميا لها بكل ما يستطيع من الذل والخسة والدناءة . وكان جرير ينقض على الأخطل كالصقر الجارح ، ويضع عينه على مخازي تغلب وهزائمها في حروبها مع قيس سواء في (يوم ماكسين) الذي نكل بها فيه (عمير بن الحباب) أو في (يوم الكحيل) الذي نكل بها فيه (زفر بن الحارث) ، أو في (يوم البشر) الذي نكل بها فيه (الجحاف السليمي) . ضاما إلى ذلك انتصارات قبيلته : يربوع في الجاهلية ، وهزائم تغلب قبل الإسلام مفتخرا عليه افتخارا عنيفا ، يقول جرير - من نقيضة طويلة ، رادا على الأخطل نقيضته التي أوردنا منها القطعة السابقة -:

نحن اجتبينا حياض المجد مترعة ... من حومة[1] لم يخالط صفوها كدر

لم يخز أول يربوع فوارسهم ... ولا يقال لهم كلا إذا افتخروا

هل تعرفون بذى بهدى[2] فوارسنا ... يوم الهذيل بأيد القوم مقتسر

خابت بنو تغلب إذ ضل فارطهم ... حوض المكارم إن المجد مبتدر

الظاعنون على العمياء إن ظعنوا ... والسائلون بظهر الغيب : ما الخبر ؟

الآكلون خبيث الزاد وحدهم ... والنازلون إذا واراهم الخمر[3]

(١) الحومة : معظم الماء . (٢) يوم ليربوع على تغلب وفيه أسرت فارسها الهذيل بن هبيرة

(٣) الخمر : الموضع المستتر .

هذه الأحزاب على كثرتها وتنوعها واختلافـــها في المبـادئ والآراء والمعتقدات السياسية شغلت الفكر العربي حقبة من الزمان ، فانصرف كثير من الشعراء يؤيدون هذا الحزب أو ذاك ، وينعون - بالتالي - على الحــزب المعارض لحزبهم والمناوئ له ، ويقوم أثناء ذلك بالدعوة إلى حزبه وتـأييده ، وتوضيح مبادئه واتجاهاته .

وقد قلنا - سابقا - إن الشعر السياسي لـــون جديـــد في الأغـــراض الشعرية في العصر الأموي ، ذلك لأنه صورة حزبية جديدة لم تكن معروفـة من قبل ، ولأن معانيه جديدة تقوم على الجدال الديني والسياســـي ، ولأن أسلوبه خصب قوي جزل ولأن الشعراء تفرقوا فيه ، فمنهم الأمــــويون من أمثـــال الفرزدق والأخطل وجرير وعدى ابــــن الرقـــاع ومســـكين الدارمي.. ومنهم العلويون أمثال النعمان بن بشير الأنصاري ، والكميت ، ومنهم الزبيريون أمثال عبيد الله بن قيس الرقيات .

ومما ساعد على إذكاء الشعر السياسي وتأجج نيرانه حرص الأمويـــين على شعرائهم ومكافأتهم لهم وبثهم روح المسابقة بينـــهم وإغـــراء بعـــض الشعراء ببعض .

** شعر الزبيريين :

حمل شعر الزبيريين بين طياته الدعوة لآل الزبير ، وبيانـــا لمذهبـــهم في الخلافة ، وما يقوم عليه من دعائم ، والإشادة بصاحب الدعوة وصفاتـــه والاحتجاج له بإضفاء الميزات التي تراها الدعوة شرطا لازما لمن يلي هـــذا المنصب الخطير ، كما تضمن شعر الزبيريين الرد على خصـــوم صـــاحب الدعوة ، والحمل عليهم على اختلافهم من أمويـــين وخـــوارج وشـــيعة وغيرهم...

ولم ينصرف شعر الزبيريين لغير تلك الموضوعات السياسية التي أشرنا إليها ، ولم تكن له غاية أخرى غيرها مما يجعلنا نقول إن شعر الزبيريين ليس له غير موضوع واحد هو السياسة ، وقد عبر هذا الشعر عن هذه الموضوعات تعبيرا دقيقا ، وقد سجل الشعر عقيدة الزبيريين الأساسية ، وما تقضي به من ضرورة كون الخلافة في قريش فهي عز العرب ورمز وجودهم ، ولا حياة لهم بدونها ، وهي عمود الخلافة فإذا ما زالت عنها سقط ركنها سقوطا لا ترتفع بعدها ، يقول عبيد الله بن قيس الرقيات شاعر آل الزبير :

أيها المشتهي فناء قريش بيد الله عمرها والفناء
إن تودع من البلاد قريش لا يكن بعدهم لحي بقاء

وعلى هذه النغمة كان شعر الزبيريين يضرب ، فقد أكثر من الافتخار بقريش ، وبفضلها على الإسلام والخلافة ، بل يعود إلى الافتخار بقريش ورجالاتها في الجاهلية والإسلام ، فقريش سادنة الكعبة وصاحبة أمر البيت الحرام ، خصها الله بهذا الشرف دون جميع العرب ، فكرامتها من كرامة البيت ، يقول ابن قيس الرقيات :

ليس لله حرمة مثل بيت نحن حجا به عليه الملاء
خصه الله بالكرامة فالبا دون والعاكفون فيه سواء

ولاعتداد العقيدة الزبيرية بالقرشية لا ينفصل عن اعتدادها بالحجاز ، وما يشتمل عليه من الأماكن المقدسة ، وهذا يضفي على الفكرة العصبية صبغة دينية مقدسة ، مما يمكن القول معه بأن العقيدة الزبيرية كانت تمثل الخلافة - كما تراها الارستقراطية العربية المضرية الحجازية المسلمة -

أقوى تمثيل ، وهي بهذا منصب لا يجدر به إلا عربي قرشي يعتز بحضريته وبموطنها الأصلي ومركز فخارها الديني في الأماكن المقدسة بالحجاز .

ومن هنا عنى شعراء الزبيريين بتصوير الخليفة تصويرا ، يجمع له فيه هذه الصفات فعبد الله بن الزبير بن الحجاز ، درج ببطاحه وجباله وحول البيت وأركانه وهو من أعز معدن من معادنها ، وأوفى فرع فيها وأوفرها حظا من السلطان والحكم والقضاء ، وأعلمها بها ، وأصحها في دائها ، وأشرفها نسبا وأتمها إذا نسبت إلى آبائها ...

يصور هذا كله شاعر آل زبير في قوله لعبد الله بن الزبير :

أنت ابن معتلج البطا   ح كديها فكدائها
فالبيت ذى الأركان فالـ   ـمستن من بطحائها
فمحل أعلاها إلى   عرفاتها فحرائها
من سرها فيها ومعـ   ـدن برها ووفائها
أوفى قريش بالعلى   في حكمها وقضائها
ولأنت أعلمها بها   وأصحها من دائها
وأتمها نسبا إذا   نسبت إلى آبائها
إن البلاد سوى بلا   دك ضاق عرض فضائها

وقد أشاد الشعر الزبيري بتدين عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب وبقوة إيمانهما وقيام ملكهما القوي على دعائم الإسلام وتعاليمه ، لا على البطش والخيلاء ، كما أشاد بتقواهما وباتقائهما الله في جميع الأمور ، يقول ابن قيس الرقيات في مصعب بن الزبير :

إنما مصعب شـهاب من اللــــــه تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوة ليـس فيه جبروت ولا به كبريــاء
يتقي الله في الأمور وقد أفلــــح من كـان همـه الاتقاء

وكما أشاد الشعر الزبيري بالدعوة لآل الزبير وبكونهم أحـق النـاس بالخلافة للأسباب التي أشرنا إليها آنفا ، والتي بسطها شـعر الزبـيريين - عنى ذلك الشعر بالحملة على خصوم الدعوة الزبيرية ، والطعـن عليـهم والتنديد بهم وإثارة الأحقاد ضدهم وقد حمل شعر الزبيريين على بني أميـة وملكهم حملات شعواء ، وأعلنهم بالعداء وهددهم بالويل والثبور وعـاب عليهم ما ارتكبوا من شرور ... وقد صور ذلك ابن قيس الرقيات في قوله:

كيف نومي على الفـراش ولما تشمل الشـام غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيـه وتبدي عن براهـا[1] العقيلة العذراء
أنا عنكـم بني أميـة مـزور وأنتـم فـي نفـسي الأعداء
إن قتلي بالطف[2] قد أوجعتني كان منكم - لئن قتلتم - شفاء

ومن ألوان الحملة على الخصوم والكيد لهم والحمل عليهم نوع مـن الهجاء يشتبك بضرب آخر من ضروب الشعر هو الغزل . وقد لجأ الشـعر الزبيري إلى هذا اللون بقصد العبث بخصوم الدعوة عبثـا يشـتمل علـى الإهانة ، ويحمل على الغضب لأن هذا اللون يذكر نساء الخصـوم بمـا لا يحسن ذكره في صورة الغزل ، وقد سمى هذا اللون بالغزل الكيـدي ، أو الغزل الهجائي .

---

(١) البري : الخلاخيل . وقد كنى بذلك عما يصيبهن من فزع شديد .
(٢) الطف : من ضواحي الكوفة حيث كربلاء التي قتل فيها الحسين

ومن هذا اللون قول عبيد الله بن قيس الرقيات في (أم البنين) وقد صورها في أحضانه - مناما - ينال منها كل ما يريد وكأنها امرأة مبتذلة هلوك لا يمسكها طهر ولا عفاف ، وإنما تمضي مع ضجيعها في اللهو إلى طلوع الفجر لا يوقظها من نشوتها إلا مناد ينادي لصلاة الصبح - يقول :

أتتني في المنام فقلت هذا حين أعقبها[1]
فلما أن فرحت بها ومال على أعذبها[2]
شربت بريقها حتى نهلت وبت أشربها[3]
وبت ضجيعها جذلا ن تعجبني وأعجبها[4]
فأيقظنا مناد في صلاة الصبح يرقبها[5]

** شعر الخوارج :

إذا ما حاولنا أن نتلمس المعاني والأغراض التي تناولها شعر الخوارج نجد أن تلك المعاني وهذه الأغراض تكاد تنحصر في تصوير حروب الخوارج وتمجيد أبطالهم وقوادهم والإشادة بشجاعتهم وتفانيهم في الاستشهاد وطلب الثواب والجنة ، واستعذاب فظائع ما يتكبدون زلفى إلى الله مطنبين في تمجيد شهدائهم وتقديسهم ، كما تنحصر في الإشادة بتقواهم وخوفهم من الله ، والإعراض عن الحياة الفانية ، واستعجال الموت رغبة فيما عند الله ، ومن هنا نجد شعر الخوارج يعبر عن جهادهم وما يعتلج في نفوسهم نحو هذا الجهاد في سبيل عقيدتهم من عاطفة ومشاعر وأحاسيس ، أكثر مما يعبر عن مبادئ هذه العقيدة ، التي خرجوا للجهاد في

---

(١) أعقبها : صارت عقباها أي صارت إلى . (٢) أعذبها : فمها .

(٣) نهلت : رويت . أشربها : أسقيها (٤) جذلان : فرح

(٥) يرقبها : أي يرقب الصلاة .

سبيلها . مما يجعلنا نقول : أن شعر الخوارج شعر عاطفي يعبر عن الـذات ، وليس شعرا مذهبيا بمعنى هذه الكلمة ، ومن أجل ذلك نجد شعر الخوارج لم يكن يخاطب العقول والأفهام ، وإنما اتجه إلى مخاطبة القلـوب والمشـاعر ، فجاء هذا الشعر معبرا عن الخوارج لا عن عقائدهم .

وبالإضافة إلى ما تقدم من المعاني والأغراض فقد حمل شعر الخـوارج هجاء أعدائهم ورميهم بالكفر والضلال والبعد عن روح الإسلام وتعاليمـه والدعوة إلى الثورة عليهم وجهادهم ومحاربتهم ، ولا سيما أعداؤهم مـن الأمويين الذين يعدونهم حكاما غير شرعيين ، ويعد جـهادهم جـهادا في سـبيل الله .

وأكاد أجزم أن شعر الخوارج قد انحصر في تلك المعاني والأغراض التي أشرنا إليها ، ولم يتجاوز دائرتها إلى غـيرها مـن المعـاني ، حـتى أن الأغراض الأخرى كالمدح والرثاء والفخر والنسيب ، قد طوعـت هـي الأخرى للمعاني والأغراض التي استوحاها شعر الخوارج ، ففخرهم - مثلا - لا يخرج عن دائرة الإيمان والشجاعة ورثاؤهم ينصـرف إلى شـهدائهم الذين قدموا أرواحهم في سبيل مرضاة الله ، وهكذا .

وإذا أردنا أن نلمس هذه المعاني وتلك الأغراض وجدناهـا ماثلـة في أشعار الخوارج واضحة جلية . فالموت قعصا بالرماح كـان أمنيـة كـل خارجي حتى يفوز بالاستشهاد وبما أعد الله من الثواب يقول يزيـد بـن حبنـاء:

أبيت وسربالي دلاص[١] حصينة ومغفرها[٢] والسيف فوق الحيازم
أريد ثواب الله يوما بطعنة غموس[٣] كشدق العنبري بن سالم

ومن أجل حبهم الموت تحت ظلال السيوف والرماح كانوا يكرهون أن يموتوا على حتف أنوفهم أو على فراشهم ومن ذلك قول عمران بن حطان حين قتل أبو بلال مرداس :

لقد زاد الحياة إلي بغضا وحبا للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشي وأرجو الموت تحت ذرى العوالي[٤]
ولو أني علمت بأن حتفي كحتف أبي بلال لم أبال
فمن يك همه الدنيا فإني لها والله رب البيت قالي[٥]

وما رغبهم في الموت تحت ظلال السيوف إلا علمهم أن الحياة فانية ، ومتاعها قليل ، ومن أجل ذلك فهم يرغبون عنها ولا يستهويهم زخرفها ، بل هم يستعجلون التخلص منها رغبة في الحياة الباقية ، وتقول إحدى نساء الخوارج المقاتلات ، وهي (أم حكيم) ، مصورة مللها من هذه الدنيا :

أحمل رأسا قد سئمت حمله وقد مللت دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عني ثقله

ولأنهم حريصون على الموت استشهادا في سبيل الله ، فهم لا يبكون قتلاهم ولا يرثونهم بالصورة التي نجدها عند شعراء الفرق الأخرى ، إذ كان قتلهم يحقق في رأيهم السعادة المنشودة ...

---

(١) الدلاص : الدرع الملساء اللينة . (٢) المغفر : زرد يلبس تحت القلنسوة. الحيازم : جمع حيزوم : وهو الصدر أو وسطه . (٣) غموس : واسعة . العنبري بن سالم : رجل من الأزارقة كان يقال له الأشدق لسعة فمه . (٤) العوالي : الرماح . (٥) قالي : كاره .

بل مضوا يمجدون قتلاهم على نحو ما نجد في شعر (أم عمران الراسبي)
حين قتل ابنها في يوم دولاب :

الله أيد عمرانا وطهره ... وكان عمران يدعو الله في السحر
يدعوه سرا وإعلانا ليرزقه ... شهادة بيدي ملحادة[1] غدر[2]

ولأن الموت والشهادة في سبيل الله منتهى أملهم ، فهم يستحثون من
تعلقت نفوسهم بالحياة، تعلقا يرد في أكثر الأمر إلى إشفاقهم على بناتهم
وأبنائهم ، يصور ذلك ما رواه المبرد من أن أبا خالد القناني استحب القعود
فلامه قطري بن الفجاءة بمثل قوله :

أبا خالد يا انفر[3] فلست بخالد ... وما جعل الرحمن عذرا لقاعد
أتزعم أن الخارجي على الهدى ... وأنت مقيم بين لص وجاحد

فكتب إليه أبو خالد :

لقد زاد الحياة إلي حبا ... بناتي إنهن من الضعاف
أحاذر أن يرين الفقر بعدي ... وأن يشربن رنقا[4] بعد صافي

وكما أن الخوارج فرسان بالنهار فهم رهبان بالليل ، يقول عمرو بن
الحصين في رثاء عبد الله بن يحيى وقائده أبي حمزة ومن قتل من أصحابهما ،
مصورا في هذا الرثاء كيف كانوا على جانب كبير من الخشوع والخشية
من النار ، كما يصور انكبابهم على العبادة انكبابا لا ينامون فيه إلا
اختلاسا وآونة بعد آونة إلى أن يقول :

---

(١) ملحادة : من الإلحاد والتاء للمبالغة .   (٢) غدر : كثير الغدر .

(٣) يا نفر : يا : للتنبيه ، أو في تقدير حذف منادي مثل يا أخي .

(٤) الرنق : الكدر

كم من أخ لك قد فجعت به قـوام ليلته إلى الفجر
متـأوه يتلـو قـوارع من آي القرآن مفزع الصدر

ويقول الطرماح في هذا المعنى :

لله در الشــراة إنهـم إذا الكرى مال بالطلا أرقوا
يرجعـون الحنـين آونـة وإن علا ساعة بهم شـهقوا
خوفا تبيت القلوب واجفة تكاد عنها الصـدور تنفلق

***

* * شعر الشيعة :

إذا تصفحنا شعر الشيعة وجدنا أغراضه ومعانيه تدور حول حـب آل البيت حبا يمتلك مشاعرهم ، كما تدور حول الثورة على بني أمية ثـورة تطوي في داخلها حقدا شديدا ، ودعوة ملحة إلى سفك دمائـهم ، كمـا سفكت دماء شهداء الشيعة وهم دائما يبكون هؤلاء الشهداء بكاء حارا ، حتى لتستحيل كثرة أشعارهم بكائيات مغرقة في الحزن واللوعة وتحريضـا على الثأر لهم ، وحملات على بني أمية ، ينعتون فيها بنعوت تخرجهم عـن دائرة الإسلام ، وتصمهم بالظلم والجبروت والاغتصاب ، كما تسـتحيل هذه الأشعار - في أحيان أخرى - جدالا عن الحق المغتصب جدالا عقليـا وعاطفيا ، كما كانت - في بعض الأحيان - تعبيرا عن عقيدتهم في الإمـام الذي لا يختلفون في ضرورة كونه من آل البيت .

وإذا ما حاولنا أن نستعرض هذه المعاني والأغراض التي احتواها شـعر الشيعة وجدناها واضحة جلية ، فحب آل البيت الذي ملك قلوب الشيعة نجده واضحا في قلب أبي الأسود الدؤلي :

أحب محمدا حبا شديدا وعباسا وحمزة والوصيا[1]

وجعفر إن جعفر خير سبط شهيد في الجنان مهاجريا

أحبهم لحب الله حتى أجئ إذا بعثت على هويا[2]

بل قد دفع هذا الحب ببعض الشيعة دفعا إلى استشعار التقوى ، وعبادة الله حق عبادته ، بل لقد دفع نفرا منهم إلى الزهد في الحياة من مثل حرب بن المنذر بن الجارود الذي قنع من دنياه باليسير القليل من الطعام وقنع من دنياه بكفن الكتان ، وحسبه من دنياه وأخراه أنه يحب آل البيت ، يقول حرب :

فحسبي من الدنيا كفاف يقيمني وأثواب كتان أزور بها قبري

وحبي ذوي قرب النبي محمد فما سالنا[3] إلا المودة من أجر

بل إن بعض الشعراء يرى حب آل البيت دينا وبغضهم كفرا ، فهم أئمة أهل التقى وخير أهل الأرض كما يذهب إلى ذلك الفرزدق في مديح علي بن الحسين ، إذ يقول :

من معشر حبهم دين وبغضهم كفر وقربهم منجي ومعتصم

إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم

وهذا الحب الشديد جعلهم يذرفون الدموع غزارا على من مات من آل البيت ، فاستحال شعرهم - في أكثره - عبارات وزفرات . فها هو ذا سليمان بن قتة يقول في رثاء الحسين شهيد كربلاء :

مررت على أبيات آل محمد فلم أرها كعهدها يوم حلت

وكانوا رجاء ثم صاروا رزية وقد عظمت تلك الرزايا وجلت

---

(١) يريد: بالوصي: علي بن أبي طالب، إذ كان الشيعة يعتقدون أن النبي ﷺ أوصى له بالخلافة

(٢) هويا : هواي . (٣) سالنا : بالتخفيف : لغة في سأل .

ألم تر أن الشمس أضحت مريضة لفقد حسين والبلاد اقشعرت
وقد أعولت تبكي السماء لفقده وأنجمها ناحت عليه وصلت

وهذا الحب لآل البيت ، وهذا البكاء والعويل على من يموت منهم قد أورثا حقدا على الأمويين وكراهية لهم ، ومن هنا امتلأ شعر الشيعة بالسخط والمرارة على ولاتهم الذين يعنفون بأئمتهم فيقتلونهم وينبشون قبورهم ويعد لبونهم على الأعواد .. يقول الكميت في الحملة على بني أمية:

فقل لبني أمية حيث حلوا وإن خفت المهند[1] والقطيعا[2]
ألا أف لدهر كنت فيه هدانا طائعا لكم مطيعا
أجاع الله من أشبعتموه وأشبع من بجوركم أجيعا
ويعلن فذ أمته جهارا إذا ساس البرية والخليعا
بمرضي السياسة هاشمي يكون حيا[3] لأمته ربيعا
يقيم أمورها ويذب عنها ويترك جدبها أبدا مريعا[4]

ويقول فيهم أيضا :

لهم كل عام بدعة يحدثونها أزلوا بها أتباعهم ثم أوحلوا
كما ابتدع الرهبان ما لم يجئ به كتاب ولا وحي من الله منزل
تحل دماء المسلمين لديهم ويحرم طلع النخلة المتهدل
فيا رب هل إلا بك النصر يرتجي عليهم وهل إلا عليك المعول

---

(١) المهند : السيف .
(٢) القطيع : السوط .
(٣) حيا : غيثا
(٤) المريع : الخصيب المكلئ

وقد حمل شعر الشيعة في أحيان كثيرة بعض أفكار الشيعة ومعتقداتهم كقولهم برجعة أئمتهم بعد مماتهم فهم لا يموتون ، بل يغيبون مدة من الزمن ثم يعودون : يقول (كثير) في ابن الحنفية حين لبى نداء ربه :

ألا إن الأئمة من قريش	ولاة الحق أربعة سواء
عليّ والثلاثة من بنيه	هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر	وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا تراه العين حتى	يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى عنهم زماناً	برضوى عنده عسل وماء

***

** شعر الأمويين :

وإذا كان لكل حزب من الأحزاب السابقة شعراؤه الذين يتحدثون عن مبادئه وأهدافه ومحاسنه ، داعين إليه ، ومهاجمين خصومه وأعداءه من الأحزاب الأخرى - فإن الحزب الأموي - أيضاً - كان له شعراؤه الذين أخذوا يدعون للأمويين متحدثين عن محامدهم وفضائلهم وأنهم أحق الناس بالخلافة ولولاهم لما قامت أحكام الشريعة في الأرض ، ومهاجمين خصومهم وأعداءهم من أئمة الأحزاب الأخرى المعارضين لهم من شيعة وخوارج ، وزبيريين .

وحول هذه المعاني والأغراض دار شعر الأمويين ، فهو إما مادحاً للسياسة الأموية مشيداً بساستها من خلفاء البيت الأموي ، وإما قادحاً لأعدائهم من الأحزاب الأخرى .

وإذا حاولنا أن نستعرض هذه المعاني وجدناها واضحة جلية في شعر الأمويين فحينما أراد معاوية أن يأخذ البيعة لابنه (يزيد) ، وعرف معاوية

نفور المسلمين من ذلك ، دفع بعض الخطباء إلى الدعوة لفكرته كما دفـع بعض الشعراء ، وكان أسرع من لباه منهم مسكين الدارمي ، فأنشأ يقول:

بني خلفـاء الله مهـلا فإنمـا ... يبوئها الرحمن حيث يريد

إذا المنبر الغربي خلـى مكـانه ... فإن أمـير المـؤمنين يزيد

على الطائر الميمون والجد صاعد ... لكل أنـاس طائر وجدود

وكان شعراء الأمويين يقررون دائما حقهم وأفضليتهم في إرث النبوة ، وأنهم أولى قريش بهذا الإرث وأن الله اختارهم لخلقه ، يقول الأحـوص في الوليد بن عبد الملك :

تخيره رب العباد لخلقه ... وليا وكان الله بالناس أعلما

فهو يثبت له أن الله عز وجل اصطفاه لخلقه ، وأنه وكل إليه شـئونهم يدبرها كما يشاء .

ويقول عدي بن الرقاع في الوليد بن عبد الملك :

صلى الذي الصلوات الطيبات له ... والمؤمنون إذ ما جمعوا الجمعـا

على الذي سبق الأقوام ضاحية ... بالأجر والحمد حتى صاحباه معا

هو الذي جمـع الرحمـن أمتـه ... علـى يديـه وكانوا قبله شيعا

إن الوليـد أمـير المـؤمنين له ... مـلك عليـه أعان الله فارتفعا

ويقول جرير في هشام بن عبد ا لملك :

إلى المهدي نفزع إن فزعنا ... ونستسـقي بغـرته الغماما

وحبل الله تعصمكم قواه ... فلا تخشى لعروته إنفصـاما

رضينا بالخليفة حين كنا ... له تبعا وكان لنـا إمامـا

تباشرت البلاد لكم بحكم ... أقام لنا الفرائض واستقاما

فهشام هو المهدي الذي يفزع إليه الناس ، لقد أقامه الله عليهم ووكل لهم شئونهم ، فحبل الله تعصمهم قواه فلا يخشى انتقاضه وهشام يطبق في حكمه حدود الشريعة الإسلامية ، وينشر العدل في ربوع بلاده .

ويقول جرير في سليمان بن عبد الملك :

سليمان المبارك قد علمتم — هو المهدي قد وضح السبيل

أجرت من المظالم كل نفس — وأديت الذي عهد الرسول

صفت لك بيعة بثبات عهد — فوزن العدل أصبح لا يميل

فهو يصفه بالعدل ورد المظالم عن الناس كما يصفه بأنه مهدي مبارك ، من اتبعه سلك سبيل الهدى ، ومن تركه سلك سبيل الضلال .

وقبل ذلك مدح الفرزدق عبد الملك بن مروان بقوله :

لولا الخليفة والقرآن يقرؤه — ما قام للناس أحكام ولا جمع

أنت الأمين أمين الله لا سرف — فيما وليت ولا هيابة ورع

أنت المبارك يهدي الله شيعته — إذا تفرقت الأهواء والشيع

يآل مروان إن الله فضلكم — فضلا عظيما على من دينه البدع

والبيت الأموي في نظر شعراء بني أمية هو أحق بيت بالخلافة ومن ثم فإن الله اصطفاهم للأمة الإسلامية ، يقول الأخطل :ـ

تمت جدودهم والله فضلهم — وجد قوم سواهم خامل نكد

ويوم صفين والأبصار خاشعة — أمدهم - إذ دعوا - من ربهم مدد

وأنتم أهل بيت لا يوازنهم — بيت إذا عدت الأحساب والعدد

ولم يقف شعراء بني أمية عند مدح الخلفاء من بني أمية ، بل تعدوهم إلى مدح ولاتهم وقوادهم ، مثل قول الفرزدق في الحجاج :

ولم أر كالحجاج عونا على التقى ولا طالبا يوما طريدة تابل[١]

بسيف به لله تضرب من عصى على قصر[٢] الأعناق فوق الكواهل

شفيت من الداء العراق فلم تدع به ريبة بعد اصطفاق الزلازل

ومن مثل قول حارثة بن بدر الغداني في زياد بن أبيه :

فأنت إمام معدلة وقصد وحزم حين تحضرك الأمور

أخوك خليفة الله ابن حرب وأنت وزيره نعم الوزير

بأمر الله منصور معان إذا جار الرعية لا تجور

وكنت حيا وجئت على زمان خبيث ظاهر فيه شرور

فلما قام سيف الله فيهم زياد قام أبلج مستنير

وكما مدح شعراء الأمويين خلفاء بني أمية وولاتهم - كما مر - فإنهم قد تعرضوا في أشعارهم لهجاء أعدائهم وخصومهم والثورة عليهم من الزبيريين والشيعة وغيرهم ، ومن ذلك قول عبد الله بن خارجة يحض عبد الملك على حرب ابن الزبير والقضاء عليه :

آل الزبير من الخلافة كالتي عجل النتاج بحملها فأحالها[٣]

قوموا إليهم لا تناموا عنهم كم للغواة أطلتم إمهالها

إن الخلافة فيكم لا فيهم ما زلتم أركانها وثمالها[٤]

أمسوا على الخيرات قفلا مغلقا فانهض بيمنك فافتتح أقفالها

وكقول أعشى همدان في الحجاج بعد قضائه على ثورة عبد الرحمن ابن الأشعث ، واصفا جيش ابن الأشعث بأنه جيش فاسقين ، وأهل بدع ، وبغي وضلال وفتنة في الدين :

---

(١) تابل : من التبل وهو الثأر . (٢) القصر : أصل العنق .

(٣) أحالها : جعلها لا تنتج . (٤) الثمال : الغياث الذي يقوم بأمر قومه .

أبــى الله إلا أن يتمم نــوره ويطفئ نار الفاسقين فتخمــدا

وينــزل ذلا بالعراق وأهلــه لما نقضوا العهد الوثيق المؤكــدا

وما أحدثوا من بدعة وعظيمة من القول لم تصعد إلى الله مصعدا

فقتلاهم قتلى ضــلال وفتنة وحيهم أمســى ذليــلا مطــردا

وما زاحف الحجاج إلا رأيته معانــا ملقــي للفتــوح معودا

******

***

من الأغـراض المتطـورة

شـعر الطبيعـــة:

تعد الطبيعة من أهم مصادر الإلهام للشعراء إذ يلجأون إليها، ومعهم مشاعر الغبطة، أو الخوف والرجاء أو الحزن. فيزاوجون بين أنفسهم والطبيعة فينتج شعراً يضاهي هـذه النفـوس، وما تمر بـه من رضا أو سخط، ومن راحة أو شقا .. ويعكس دخائلهم وما يموج فيها من اطمئنان وسعادة، أو قلق وعنت ...

هذا ولقد اهتم بها الشعراء اهتماماً واضحاً، ووصفوها وصفاً طويلاً ومدوعاً بعد وقفاتٍ طويلة أمام ديار محبوباتهم. وتحدثوا عن أحجارها الصماء التي طال عليها الأمدُ. ووقفوا عند أثافيها السفع المحترقة، ونؤيها المتهدم، وحيواناتها التي تجوسُ في قيعانها، وذكروا اندراس هذه الأطلال، وتعاقب الأمطار، والرياح الشديدة عليها كما حددوا الزمن الذى مرّ عليها، وحرصوا على تسميتها.

لقد صوروها في أشكال مختلفة تعكسُ – في أغلب الأحيان – الحالاتِ النفسية الصعبة التى يعانى منها الشاعرُ، وهو يقفُ على ذكريات كلِ هذا وذاك.

أجل إنهم صوروها لنا، ففصلوا فيها، وأكثروا منها، ولا شكّ إنها – كانت – تترك في نفوسهم أعمق الأثرِ، لأنها تحملُ تخيلاتٍ مؤلمةً عن صورةِ الحياة الدارسة[١] ونحن عندما نقرأها نحسها ونتجاوبُ معها، وننفعلبها، لصدقها، وواقعيتها. لكن ربما يأخذنا العجب العجابُ، لا لأنهم لم

---

(١) د/ نورى القيس: الطبيعة فى الشعر الجاهلى، ص ٢٥ – ٢٥١، طبعة الإرشاد – بيروت سنة ١٩٧٠م.

يقولوا أكثر مما قالوه وإنما، لأنهم قالوا كلّ ما قالوه، وكلنا يقينٌ بفقر طبيعتهم الصحراوية، وتشابهها، وقلة التنوع في مناظرها، وألوانها، ونباتها، وهم لم يتركوا ناحيةً منها إلا وصفوها فاتقنوا الوصف وفصلوه[١].

مهما يكن من أمرٍ فإن شعر الطبيعة يعدُ اتجاها متميزاً في الشعر الجاهلي بل الباعث الملهم، وبدية الفن الأدبي لدى شعراء الجاهلية ومنطلقها الفني[٢].

وبالنظر إلى شاعرنا الأموي – فإنه شاعر طبيعة – يقلبُ وجهه فيها، فتوليه قبلة يتضرعُ إليها مستغيثاً؛ فتمطر عليه من الإلهامات، والصورِ والتشابيه، ما يشبعُ ضالته المنشودة – إنه يتأمل فيها، ويبثها آلامه، وينسى عندها أشجانه ويفتن بآيات الجمال فيها، فيصورها كما ارتأتها نفسه، فإذا وقف عند أطلالها فإنها تثير شجونه، وتشحن عيونه، لتزرف من آماقها ما كان من قبلُ عصيا، وإذا امتطى فرسه، أو ناقته تملكها فؤاده. وإذا رحل إلى صحرائه، وأماكنها الموحشة المهجورة يستهويه برقها، ومطرها، وحيوانها وما يتخللها من الرياح، وما يتقلبُ عليها من فصول السنة.

أجل لقد وصفَ كلّ شئ حتى أن بيئته قد دعمت في نفسه التشبث ببيئته وطبيعته فأتى إحساسه بها قوياً، لا يحجزه حاجزٌ، وألجأه ذلك إلى الطبيعة يستمد منها تشبيهاته، وينسج من خياله خيوط مناظرها التي تترد عليه بكرة وأصيلاً؛ لذلك تراءت له الطبيعة في كل ما تحدث فيه من غزلٍ، ووصفٍ، ومدح، وهجاء، ورثاء.

---

(١) د/ محمد النويهى: الشعر الجاهلي منهج فى دراسته وتقويمه ج ١، ص ٣٨٦.
(٢) د/ سعد إسماعيل شلبي الأصول الفنية للشعر الجاهلى. ط ٢ ص ٢١٥ مكتبة غريب.

مجـالات الطبيعـة

أولاً: السـاكنـة:

ولعلنا نقصد بها الأطلال والأثافي وغالباً ما تكون وقفتهم؛ ليحدثونا عن الديار وقد أمست بالية أو أثافي شعثاً بفعل الرياح أو غيرها .. وهنا يروق لهم أن يحددوا أبعاده الزمانية والمكانية معاً-ونجد هذا واضحاً جليّاً عند الشاعر ذي الرّمة[١] حيث يقولُ:

هل يرجعُ التَّسليمَ ربعٌ كأنه بسائفةِ قفرٍ ظهورُ الأراقم[٢]

فنراه يتحدث عن ديار المحبوبة التي صارت خلاءً، ورسوماً دراسةً مصوراً إياها بظهور الأفاعي المخططة وهي فوق رمال الصحراء، وفي هذه الصورة توضيح لفكرته الطللية.

وكذلك قوله:

أداراً بحُزوى هجتِ للعين عبرةً فماءُ الهوى يرفضّ أو يترقرقُ
كمستعبرٍ في رسم دارٍ كأنها بوعثاءَ تنصوها الجماهيرُ مُهْرَقُ[٣]

---

(١) ذو الرّمة هو غيلان بن عُقبة بن مسعود من بني عديّ بن عبد مناة، اُختلف فى لقبه لكن أقرب الآراء إلى الصحة أنه لما كان جالساً بجانب أم مية حبيبته وقد طلب الماء فلما أتته به وجدت على كتفه رمّة – أي قطعة من حبل – فقالت له: اشرب يا ذا الرّمة. هذا ولقد ولد سنة ٧٧هـ في فيافي الدهناء ببادية اليمامة تعلم القرآن والكتابة فى صباه اشتهر بحبه لميّة بنت طلبة المنقري كما عرف بهيامه بالصحراء، وله ديوان شعري مطبوع.

(٢) السائف: رملة بها طول. الأراقم: الأفاعي

(٣) وعثاء: كثيب الرمل السهل. تنصوها: تواصلها. الجماهير: الرمال العظيمة.

وقفنا فسلمنا فكادت بمشرفٍ لعرفانِ صوتي دمنةُ الدارِ تنطقُ
تجيش إليّ النفسُ في كلّ منزلٍ لميّ ويرتاعُ الفؤاد المشوّقُ
أراني إذا هوّمت يا ميّ زرتني فيا نعمتا لو أنّ رؤياي تصدقُ

حيثُ ينادي حزوي الموضع الذي كانت تقطنه ميّ محبوبة الشاعر تلك التي صارت كثباناً رملية متناثرة هنا وهناك، بفعل آثار الرياح الشديدة كل هذا أثر في نفس الشاعر فجعلته يديم البكاء على ذكريات حبه الفائت، أو الغائص في رمال الصحراء ثم لا يلبث - كعادة الشعراء الجاهليين - أن يلقي التحية على تلك الديار الخربة محاولاً استنطاقها، أملاً في استعادة ذكريات الماضي؛ ولكن هل تجيب الجمادات ... !

بعد ذلك لا يجد الشاعر سبيلاً إلى ما يود إلا بمداعبة طيف المحبوبة عساه يجد فيه ضالته المنشودة.وقريباً من هذا يذكره الأخطل فيقول[1]:

أتعرف من أسماء بالجدّ روسما محيلاً ونؤياً دارساً قد تهدّما
وموضعَ أحطابٍ تحمّلَ أهله وموقد نارٍ كالحمامة أسحَما
على آجنٍ أبقت له الريحُ دمنةً وحوضاً كأدحيّ النعامة أثلَما

فالحال لا يختلف كثيراً عما جاء به ذو الرّمة، أو جاءت به التقاليد الجاهلية الموروثة حيث رسم لنا الأخطل لوحته الطللية موفراً لها أغلب

---

(١) مزيداً من التوضيح يمكنك مراجعة: الغزل في شعر الأخطل للمؤلف للدكتور/ محمد عارف محمود حسين ط ١ ص ١٤٨ مطبعة، الأمانة سنة ١٩٨٩م.

مقوماتها الفنية لاسيما الحركية واللونية، وقد ركز على العنصر المكاني الممثل في الجد وما اكتنفه من مواضع صارت آثاراً خربة .. فالحفير قد انهارت جوانبه، وقد ردمه التراب بفعل الرياح، وموقد النار قد سكت عنه الحطب فظهر أسوداً أشبه بالحمامة السوداء، والحوض جفت منابيعه بعد أن غادره السيل وقد كان مستديراً أشبه بأدحى النعامة ..

كما نقرأ له قوله:

أتعرفُ الدار أم عِرفان منزلةٍ   لم يبق غيرُ مُناخ القدر والحُمم[١]

حيث يسائل الدار وكان من الطبيعي أن تحجم عن الجواب؛ لأنه لا تجيب الجمادات وعلى كل فإنه لا يبقى منها إلا موقد النار والفحم، أو ما يخلفه من رماد ...

على أن القارئ المتأمل في الشعر الأموي يرى أن مقدماته الطللية قد تميزت عن سابقتها الجاهلية بشئ يجدر ذكره هنا ألا وهو أن بعضاً من شعرائه قد أدخلوا عناصر إسلامية كحاجة ملحة أوجبتها العقيدة الإسلامية.

نذكر من بين هؤلاء ذا الرّمة وهو يقول:-

يا صاحبيّ انظر آواكما درجٌ   عالٍ وظلٌ من الفردوس ممدود

حيث يطلب لهما على غير العرف الجاهلي المتمثل في السقيا بأن يدفقا ويتأملا حتى ينالا رضوان ربهما، وأن يحظيا بالجزاء الأوفي يوم الحساب، وفيه تجزى كل نفس بما قدمت إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

---

(١) الحمم: الفحم أو الرماد.

كما يدعو لهما تارة أخرى قائلاً:

عَفَـت غير آريٍّ وأعضاد مسجدٍ   وسُفْعٍ مناخات رَوَاحلَ مرجَلِ[١]

قارئاً بقايا المسجد الذي كانت تتخذه القبيلة المكان الأساسي في تأدية الشعائر التعبدية والاستماع للوعظ الديني حيث إنه أهم بناء في المجتمع الإسلامي، وذلك بجانب الأثافي والنؤي والآري مما تشخص له، أو تقع عيناه عليه من آثار الحبيبة....

وعلى كل فإن ما ذهب إلى ذكره من آثار ممثلة في رسوم لم يبق منها إلاّ طلل تقادم عهده، بحيث هام بها الشعراء وبثوها في أرقي آيات الحب مما بعث فيها الحياة. لقد رأى الشاعر لأول وهلة معاني البلى والفناء وهي تلح عليه ليلاً ونهاراً ولكنه لم يسلم نفسه لتلك الأحوال، بل أمدها بفيض من الحيوية، فكأن معاني الموت من جهة، والحياة تسير من جهة أخرى.

ومما انفلت أو انسرب من آثار الطلل حيث ذكرها الشعراء منفردة كالصخور العالية في الجبل التي يقول فيها ذو الرّمة:

ترى رعَنَهُ الأقصى كأنّ قموسه   تخاملُ أحوى يتتبعُ الخيل ظالع[٢]

بحيث تظهر له وسط السراب كأنها خيل تجرى وقد ندّت منها صخرة تجري وراءها فكأنها فرس ظالع.

---

(١) الآري: كل ما حفر في الأرض. السفع: الأثافي السود.
(٢) القموس: أحد أصحاب المراتب الكنسية.

كما يتحدث عن رعان الجبال فيقول:-

كـــأنهنّ ذُرى هدّي مُحَوّ بـــه   عنها الجلال إذا ابيضّ الأياديم[1]

حيثُ يصور أعالى الجبال متحركة في السراب كأنها أسنمة الإبل، وقد أهديت للبيت الحرام فكشفت عن جلالها وبهائها، وهي تجري في أرض صلبة بيضاء ....

ثانياً: *الطبيعـة المتحركـة:*

ونقصد بها هنا النبات والشجر والبر والنهر والوادي، وما يتصل بكل ما سبق، وهنا لا نكاد نتخيل شيئاً مما ينطوي تحت هذا النوع إلا كان لشاعرنا الأموي خاطرةٌ عابرةٌ، أو فكرة متأنية فيه، أو وقفة طالت أو قصرت.

ففي النبات يقول ذو الرُمة:

للجنّ بالليل في حافاتها زجلٌ   كما تجاوب يومَ الريح عيشوم[1]

حيث يصور لنا صوت أو هزيز الجن الصادر في أحواء الليل الدامس بالصوت المختلط الذي يصدر عن نبات العيشوم عندما تحركه الرياح ولعله هنا متأثر بقول الأعشي:-

تسمع للحلي وسْواساً إذا انصرفت   كما استعان بريح عِشرقٌ زَجِلٌ

---

(١) العيشوم: نوع من النبات.

وفي نهري النيل والفرات يقول الفرزدق:-

ما النيل يضربُ بالعبرين داريه ... ولا الفـراتُ إذا آذيّه زَخَرا[١]
يعلو أعاليَ عاناتٍ بملتطمٍ ... يُلقي على سُورها الزيتون والعشرا

حيثُ ينفي عن النيل أن يدفع بشاطئيه، وكذلك الفرات حتى وإن حركت أمواجه الطمي على جانبيه فإنه ينشر على جانبي مدينته أشجار الزيتون والعشر.

ويستخدم ذو الرّمة ساقى الظليم الذي يفزعه المسافرون في أعماق الصحراء وذلك في صلابتهما وضخامتهما بعمودين من شجر العشر إذ يرفعان خباء، ولم يتقشر عنهما لحاؤهما فيقول:

كأن رجليه مسماكان من عُشرٍ ... صقَبان لم يتقشرْ عنهما النَّجَبُ

وتتراءى له قوافل الظعائن كأنها بواسق النخل المرتفعة فوق رمال بيرين وهَجَر فيقول:

كأنّ أظعان ميّ إذ رفعن لنا ... بواسق النخل من بيرين أو هجرا

أو كأنها نخل متفاوت الطول ينمو في قرى خصبة فيقول:

فقال أراها بالنُّميط كأنها ... نخيلُ القرى حُبّاره وأطاولُهْ[٢]

---

(١) آذيه: موجه الشديد. زخر: طغى.
(٢) النميط: موضع.

أو كأشجار الميس العظام تتمايل أعاليها:-

نظرت إلى أظعان مي كأنها　　نواعمُ عُبرِيّ تميلُ غُصُونُها

ويصف أمواج جبال الصحراء كأمواج الفرات الصاخبة، وأنهار المياه كصحاري الرمال فيقول:-

كأنّ مطايانا بكلّ مفازة　　قراقيرُ في صحراء دجلة تَسبحُ[١]

ثالثاً: ظواهر الطبيعة:

ونقصد بها العلويات كالسحاب والرعد والبرق وما يتصل بها من الرياح والأمطار والبرد والحر والنجوم والشمس إلى غير ذلك.

ففي السحاب نقرأ قول ذي الرُّمة:

حتى إذا ما لها في الجِدْرِ، واتخذت　　شمسُ النهار شعاعاً بينها طِبَبَ[٢]

حيث يذكر لنا النبات عندما يغفل - أو يتمايل في دعة - بينما ترسل الشمس أشعتها وقد تخللتها طرائق سابحة من السحاب وهنا يذكره عبيد الله ابن قيس[٣] الرقيات راثياً مصعب قائلاً:

---

(١) قراقير: سفن طويلة عظيمة مفردها قرقور.

(٢) الطبب: طرائق.

(٣) هو عبيد الله بن قيس بن شريح بن مالك بن ربيعة بن أهيب بن ضباب عبد بن معيض ابن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر بن النضر قرشي من جهة أبيه وقيل من جهة أمه وهو شاعر أموي قرشي أشتهر بالغزل والمديح والرثاء.

نعت السحائبُ والغمامُ بأسرها　　جسداً بمسكن عاري الأوصال

حيثُ يصور لنا فجيعته بمصعب وخيانة أهل العراق له وغدرهم به وحزن الكثيرين عليه حتى السحائب والغمام فإنهما راحا ينعيانه ويشيعانه بأحر وأغزر الدموع ...

كما يذكر لنا البرق فيقول مادحاً سكينة بنت الحسين لما تزوجها مصعب ورحل بها إلى العراق فيقول:

وبدت لنا من تحتِ كلتها　　كالشمسِ أو كغمامةِ البرقِ

ولا ينسى الأخطل[1] الرعد قائلاً:

بجولُ ليلةَ والعينُ تضربه　　منها بغيث أجشّ الرعد نوّارِ

ويذكره ذو الرمة في معرض حديثه عن الثور عندما تمارس الطبيعة معه بعض الشعائر فهي تغسله وتطهره وتطيبه قبل المعركة فيقول:-

كأنه والدجى في الليل منغمسٌ　　ذو يلمق من عتيق القهر مقصور

إذا انجلى البرق عنه قام مبتهلاً　　لله، يتلو له بالنجم والطور

وننتقل إلى الرياح فنجد ذا الرمةْ يذكره في معرض حديثه عن الطلل فيقول:-

---

(١) الأخطل: هو غياث بن غوث من بني تغلب من فَدَوكَس يكني أبا مالك شاعر أموي مدح معاوية ويزيد من بعدهم من خلفاء بني مروان حتى هلك.

وهاجت بقايا القلقلان وعطلت   حواليهُ هُوج الرياح الحواصدُ(١)

إن النبات قد جف في الصيف حتي صار هشائماً لا تثمر؛ لذا فلقد أطارت الريح الشديدة سفاه بعد أن ذهب البرق بظهور نجم الصيف.

ونذهب إلى الأمطار التي تحركها الرياح فنقرأ قول القطامي(٢) :-

لَهِقٌ، سقته من المحرّم ليلةٌ   هطلت عليه بديمة هطلانا
فثنى أكارعه، وبات تجُمّسه   رِهَمٌ تُسيل تلاعَهُ إمعانا

حيث إنه يحدثنا عن ثوره فينعته بشدة البياض كحال الشعراء وقد هطلت عليه أمطار فما كان منه إلا أن ثنى قوائمه فغطته أمطار ضعيفة متواصلة وقد أدركه الليل والمطر فلجأ إلى غصون شجر الأرطى يحتمي بها حتى الصباح الباكر.

ونرتقي إلى النجوم فنجد محارب بن دينار يستخدمها في رثاء عمر ابن عبد العزيز فيقول:

كم من شريعة حق قد أقمت لهم   كانت أميتت وأخرى فيك تنتظر
يا لهفي نفسي ونفس الواجدين معي   على النجوم التي تغتالها الحفر

---

(١) القلقلان : ثمر. حواليه: ما أثمر منه.
(٢) القطامي: هو عمير بن شُيَيم من بني تغلب شاعر أموي كان حسن التشبيب رقيقه.

ويستخدمها الأخطل في رثاء زوجته وقد جزع على فقدها جزعاً شديداً فيقول :-

أرعي النجوم وقد مضت غَورِيّة　　عُصَبُ النجوم كأنهن صُوَار

كما يستدعيها ذو الرّمة مصوراً:

وردْتُ وأردافُ النجومِ كأنها　　وراء السّماكين المها واليعافِرُ[١]

النجوم وهي تسير وراء السماكين وكأنها بقر الوحش والظباء.

وقد يتخيل النجوم الجوزاء صوراً أو قطيعاً من قطعان البقر متحركاً في هذا الرمل الواسع المسمى أميلاً فيقول:

وقد مالت الجوزاء حتى كأنها　　صِوارٌ تدلى من أميلٍ مُقَابِلِ[٢]

وننتقل إلى الشمس لنجد قول ذي الرّمة

ولما رأين الليل والشمس حيةٌ　　حياة الذي يقضي حُشاشة نازع

حيث يتخيل الشمس وهي تودع النهار كأنها نازع عند الموت إذ يلفظ أنفاسه الأخيرة وهذا التصوير قد ملأ به تصويره للطبيعة الصامته، واستخرج صوراً نادرة .. !

---

(١) المها: بقر الوحش. اليعافر: الظباء.

(٢) الجوزاء: برج من بروج السماء. صوار: قطيع من البقر، والجمع أصورة وصيران.

وفي حرّها يقول الطرماح[١]:

وقد علل الحرباءُ، واسطهر اللظي ... جنادب يرمحن الحصى كلّ مرمح

حيث يرى أن الحر الشديد قد جعل الحرباء تصعد جزعةً كما جعل الجراد يتطاير هنا وهناك وقد هام على الحصى محاولاً الهروب من وهج الحرّ...

كما يقول جرير:

يجاذبن البُرين وهُنّ خوص ... يطرن شوابك الزَّبد الجِهادِ
يصادين الهواجرَ حين تحمي ... وحرباءُ الفلاة أحَمُّ صاديَ

ويقول الأخطل موضحاً أثر الشمس، وشدة حرارتها في الصحراء بحيث تمثل صراع الأموي من أجل الحياة والبقاء.

إذ لا تجهّمُني أرضُ العدوّ ولا ... عسف البلاد إذا حرباؤها جذلا
يظلّ مُرتَبِيا للشمس تصهره ... إذا رأى الشمس مالت جنبه عدّلا

وكثيراً ما استخدمها الشعراء مشبّهاً به في شعرهم وذلك لتسائهم في إشراق وجوههن، وشدة ضيائها ..

---

(١) الطرماح: هو الطرماح بن حكيم، من طيئ، ومكنى أبا نفر. وكان جده قيس ابن جحدر أسره مالك من ملوك جفنة فاستوهبه وقال فيه شعراً فأطلقه هنا ولقد كان خطيباً وشاعراً وراوياً.

من هؤلاء ابن قيس الرقيات بحيث ننظر إلى قوله:-

قرشية كالشمس أشـ ـرق نورها ببهائها

فنراه يشبه حبيبته تلك القرشية بالشمس في دوران وجهها وإشراقه وشدة جماله.

رابعة الطبيعة الحية:

إن القارئ المتأمل في الشعر الأموي يستطيع القول بأن الشعراء الأمويين قد تركوا لنا رصيداً ضخماً من الروائع والمبدعات ما جعل شعر الطبيعة علامةً مضيئة في جبينه.

لقد كانت لهم لوحات ممتدة تتسم بالواقيعة والفنية المثلى بحيث رأيناهم يصفون فيها الإبل والخيل والثيران والعير والكلاب والصقور وكل ما كان يحيا حياتهم لكن غرامهم الفائق ظهر بوضوح في وصف الإبل والخيول وتصويرهما بالحيوانات الوحشية وبالطيور بحيث انتهزوا هذا التصوير فرصة ينسبون فيها أبلهم وخيولهم إليهم على شاكلة الجاهلين وإن فاقوهم بمشاركة حيواناتهم لهم في مشاعر الهوى، ومسائل الغرام على نحو ما لمسنا عند بعض العذريين.

من هذه الحيوانات نذكر: البقرة الوحشية ونجد مثل هذا ماثلاً في قول القطامي عندما يصور فجيعة بقرة بابنها فيقول:-

كأن نسوع رحلي حين ضمّت حوالبَ غُرّزا ومعاً جياعا
على وحشية خذلت خلوج وكان له طلاً طفلٌ فضاعا

فكرَت عند فيقتها إليه فألفت عند مربضه السباعا
لعبن به فلم يتركن إلاّ إهاباً قد تمزّق، أو كُراعا

حيث نرى الشاعر يصور عاطفة البقرة وتمثيلها لأمومتها الحانية وشعورها بالعجز عن الرعاية الدائمة لوليدها في ظل الصراع القائم على البقاء للأقوى لكن الحذر لا يدفع أو يغني من الأمر شيئاً للأم العطوف .. فلقد ضاع ابنها الوليد وبعد مشقة كبيرة ورحلة بحث مضنية عثرت عليه بين سيقان السباع التي كانت تلاعبه.

ويستخدمها الفرزدق[١] مشبها بها حبيبته فيقول:-

ومستنفرات للقلوب كأنها مهاً حول منتُوجاته يتصرّف

ويسجل ذو الرّمة غرامة الفائق بالناقة حتى كاد أن ينحت لها تمثالاً شعرياً فيقول:-

جمالية حرف سناد يشلها وظيفٌ أزجّ الخطوريّان سهْوَقُ
وكعبٌ وعرقوبٌ كلا منجميها أشمّ حديد الأنف عارٍ معرّقُ

---

(١) الفرزدق: هو همّام بن غالب وهو من أشراف بيوت تميم من مجاشع بن دارم عرف جده صعصعة بأنه محيي الموءودات، وأم الفرزدق اسمها لينة من قبيلة ضبة ولد بكاظمة وهي التي تسمى حالياً الجهرة شرق مدينة الكويت، وكانت ولادته في أيام عمر رضي الله عنه. نظم الشعر وهو في الخامسة عشرة من عمره وكان يتشيع لآل البيت، ولكنه مع ذلك كان يمدح بني أمية هذا يعتبره النقاد من أعظم شعراء العصر الأموي، حيث اشتهر بهجائه لجرير.

وفوقها ساقٌ كأنّ حماتها   إذا استعرضت من ظاهر الرحل خرنقُ

إنها ناقة عرفاء ضخمة صلبة طويلة، ضامرٌ بطنُها كأنما خلقت فحلاً من الفحول يعينها -على سرعة السير، وخفة الحركة ومباعدة الخطى وظيف ممتد ممتلئ طويل، وكعب وعرقوب ناتئان مرتفعان عاريان من اللحم ومن فوقهما ساق غليظة ممتدة كما يصف ناقته المقربه إليه فيقول[١] :

لها أذن حشرٌ وذ فرى أسيلة   وخدٌ كمرآة الغريبة أسجع
وعينا أحمَ الرّوق فردٍ ومشفرٍ   كسبْت اليماني جاهلٌ حين تمرحُ
ورجلٌ كظلّ الذئب ألحقَ سدْوها   وظيفٌ أمرّهُ عصا الساق أروحُ

إن أذنها حادة دقيقة، وخدها طويل أسيل، كأنه مرآة الغريبة التي تتعهدها بالخلاء والصقل وعيناها حادتان كأنهما عينا ثور وحشي، ومشافرها لينه تشبه الجلودِ المدبوغةِ التي يصنعها أهل اليمن، وأرجلها سريعة كأنها ظل الذئب لا تكاد العين تلاحقه.

إن القارئ المتأمل في الشعر الأموي يستطيع القول بأن الشعراء الأمويين قد تركوا لنا رصيداً ضخماً من الروائع

كما نقرأ قول الفرزدق عندما يصف ناقته بالتعب والإعياء المطلق وهو في طريقة للمدوح حيث كان أدعى إلى كثرة عطاء الممدوح حيث يقول:-

---

(١) انظر: ذو الرّمة شاعر الحب والصحراء ليوسف خليف ط ١ ص ١٥٤ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨م.

أقول لحرفٍ لم يدع رحلُها لها   سناماً وتثوير القطا وهي همدُ
على فتى الناس الذي إن بلغتهِ   فما بعده في نائل مُستَلَدَدُ

ويقول ذو الرّمة في الأتن الوحشية:-

رمى فأخطأ والأقدار غالبةٌ   فالصعنَ والويلُ هَجْيراه والحرب[١]
يقعن بالسّفح مما قد رأين به   وقعا يكاد حصى المعزاء يلتهب

حيثُ إن الضمير في «الصعن» يعود على الأتن الوحشية.

وفي الإبل نقرأ قول الكميت[٢]:

أخذوا القصدَ واستقاموا عليه   حين مالت زوامل الآثام

حيث يصف بني هاشم بالاستقامة وحسن الرأي بينما يصف بني أمية بالإسراف والإعوجاج مثل الزوامل أى الإبل التي تحمل الماء وقد انحرفت، والواضح أنه يصف عدل الإمام الشيعي، وجورالأموي.

وفي الثور استطاع الشعراء الأمويون أن يرسموا عالمه النفسي بحيث يستخفه نشوة النصر وتستبد به حمى الظفر فإذا هو وسط الكلاب المنهزمة

---

(١) «والويل هجيراه والحرب» يريد أنهما عاداته ورأيه. المعزاء : أرض غليظة ذات حصى.

(٢) الكميت: هو الكميت بن زيد من قبيلة أسد وهي قبيلة مضرية عدنانية ولد بالكوفة حوالي سنة ٦٠ هـ. نشأ شيعياً يمدح آل البيت وقد كان فقيهاً وخطيباً شاعراً عالماً بآداب العرب ولغاتها وأخبارها، اشتهر بمدح الرسول (ص) وفي بني هاشم وتدعي تلك المدائح الهاشميات ولقد تناقلها الناس بسبب جودتها وعناية الشيعة بها وشعره في آل البيت يغلب عليه طابع الحزن. والزوامل: الإبل التي تحمل المال.

يجول في فرح ونشاط وقد زالت عن قلبه الهموم والمخاوف، وفي سرعته وخفة حركته يشبه الشهاب الثاقب ينقض خلف شيطان مارد يحاول أن يسترق السمع من السماء من بين هؤلاء ذو الرمّة الذي يقول:-

وليّ يهزّ انهزاماً وسطها زَعِلاً حذلان قد أفرَخَت عن روحِه الكُرَبُ
كأنه كوكبٌ في إثرِ عفريةٍ مُسَوَّمٌ في سواد الليل مُنقضِبُ

ويقول فيه القطامي:-

وكأن نمرقتى فويق مولع يرعي الدكادك من جنوب قطانا
بعوازب القفرات بين شقيقة وكثيبها ينتظر الحدثانا
أرِقاً تضاحكه البروق براجفٍ كسني الحريق ولامع لمعانا

حيث يصف الثور الوحشى ذلك المخطط في موضع قطان وكأن وسادته فوقه .. والواضح أن الثور كان مغترباً متفرداً قلقاً يجد الوحشة في ظلمة الليل وشدة الريح، ووقع المطر وهو في ذلك الوقت الذى يخوض فيها معركة الحياة والموت - من أجل الصراع على البقاء - يكون بعيداً عن قطيعه، موغلاً في المراعي وبالنظر فيما جاء به الشعراء الأمويون في وصف الثور والبقرة الوحشيتين والناقة فإن الحال لا يختلف كثيراً عما كان عليه الأمر في الشعر الجاهلي حيث إنهم رسموا خطوطها وجسموا ملامحها، وأبرز دلالتها مع اختلاف يسير في الألوان والحركات والصيغة الشعرية.

ونستمع إلى ذي الرمّة يقول في وصف ظباء تلعب في فلاة

كأنّ بلادهنّ سماء ليلٍ تُكشّف عن كواكبها الغيومُ

فالفلاة تشبه السماء من حيث الغيوم فضلاً عن تشابهها من حيث الظباء والنجوم وفي الأرض آفاق تخرج منها هذه الظباء كما تخرج النجوم من غيوب السماء.

ويصور عاطفة الظبية نحو خشفها فيقول:

إذا استودعته صفصفاً أو صريمة   تنحّت وتنصّت جيدها بالمناظرِ
جذاراً على وسنان يصرعُهُ الكرى   بكل مَقِيل عن ضعافٍ فواترِ
وتَهْجُرُهُ إلا اختلاساً نهارها   وكم من محبٍ رهْبةَ العيش هاجرِ

حيثُ يصف لنا مشهد الظبية عندما ألقت بابنها على الأرض ثم راحت تقف بعيداً، لأنها تخشى أن وقفت معه أن تتربص به السباع فتنهشه؛ لذا فإنها تبعد عنه مختلسة النظر إليه وقد جذبتها عاطفة الأمومة.

ونذهب إلى الضب فنجد ذا الرّمة يذكره عندما صور جفاف الكلأ ونضوب الماء وحر الريح فيرصد الضب والحرباء وهما من أكثر حيوان الصحراء احتمالاً للقيظ فيقول:

كأن حرباءها في كل هاجرة   ذو شيبه من رجال الهند مصلوبُ

حيث يصور أحدهما مصهوراً أو مشبوهاً على جذع شجرة كأنه مصلوب أو مبتهل.

كما نجد ذكراً للضب والغراب عند عبيد الله بن قيس الرقيات.

بشر الظبي والغراب بسعدي   مرحباً بالذي يقول للغراب !

إبان انتصار عبد العزيز على أخيه عبد الملك محاولاً شد أزره في النزاع الذى أثاره الخليفة على ولاية العهد وهنا أغضب ابن قيس الرقيات عبد الملك فتهدده وتوعده وقد أحس الشاعر بالخطر على حياته.

ونقف عند القطا لنقرأ قول ذى الرّمة:

وساجرة السّراب من الموامي ... ترقّصُ في عساقلها الأروُمُ
تموت قطا الفلاة بها أوَاماً ... ويهلكُ في جوانبها النسيم

حيثُ يصور الحر الشديد الذي أشعل برّ وجوّ البادية فراحت الرياح تشوى وجوه الرفاق والإبل وتزيد من عنائهم وآلامهم. والسراب يترقرق بعيداً في الإفق فتتراقص فوقه الآكام وأسراب القطا تتساقط صرعى من الظمأ القاتل الذي فتك بها ...

كما نقرأ قوله:-

ومستخلفات من بلاد تنوفةٍ ... لمصفرّة الأشداق حُمرِ الحواصلِ[١]
صدَرنَ بما أسارتْ من ماءِ آجن ... صرى ليس مِن أعطانه غيرُ حائلِ
سوى ما أصاب الذئبُ منه وسُربةٌ ... أطافت به من أمّهات الجوَازلِ

حيثُ يصف القطا وفراخها ولا يفوته تسجيل ألوانها واختلافها في حواصلها وأشداقها وكيف تسعى الأمهات في حركة دائبة، وعزم لا يلين

---

(١) المستخلفات: القطا لأنها تستبقي الماء في حواصلها لفراخها. الأعطان: جمع عطن وهو مبرك الإبل حول الماء. السربة: جماعة القطا. الجوازل: الفراخ والرقض ما تفرق. القلاقل: نبات.

إلى الماء؛ لتحمله في حواصلها إلى صغارها تلك التي لم ينبت ريشها إلاّ قنازع تكسو رؤوسها فهي مقعدة في أفاحيصها ....

ومن الحيوانات المستحدثة على الطبيعة العربية ما جاء به ذو الرّمة في الضفادع والحيتان حيث يقول:

فَغَلَّسَتْ وعمودُ الصبح مُنصَدِع ... عنها وسائره في الليل محتجب[1]

عيناً مطحلَبَةَ الأرجاء طامية ... فيها الضفادع والحيتان تصطخب

ويذكر المفضل المطلبي الخنازير والقرود مهدداً ومتوعداً بالثأر ومتمنياً لحظة الانتقام لمقتل الحسين قائلاً:-

ونتركلكم بأرض الشام صرعى ... وشتى من قتيل أو طريد

ولست بآيس من أن تصيروا ... خنازيراً وأشباه قرود

ومن الطيور نجد محمد بن الحنيفية يذكر الحمامة في رثاء الحسن ابن على حيث يقول:-

سأبكيك ما ناحت حمامة أيكة ... وما أخضر في دوح الحجاز قضيب

غريب وأكناف الحجاز تحوطه ... ألا كل من تحت التراب غريب

من خلال عرضنا لكل ما سبق يمكننا القول أن الشعراء الأمويين قد ساروا على سنة الجاهليين في شعر الطبيعة مع اختلاف يسير في الصوغ

---

(١) التغليس: آخر الليل. عمود الصبح: الصبح الأول يعني أن ضوء الصبح قد أسفر عنها ولما تزل بقية الكائنات بالليل محتجبة. مطحلبة: عليها الطحلب. طامية: مرتفعة المياه.

ومدى التردد حيث كانوا يشيعون فيه الحركة العامرة أو الفائضة بالحيوية والخصوبة والنماء واللون بكل إشعاعاته وجاذبيته بحيث كان يمثلان الصدارة من أدوات الشاعر الأموي حتى رأينا اللوحة الفنيةَ في أبرز صورها لاسيما في الصراع الذي كان دائراً من أجل البقاء في عالم الحيوان سواء مع بعضه أم مع ظواهر الطبيعة وخصوصاً الصيفَ وقيظه الشديد، أو حره اللافح الذي شوى وجوه الإبل والأحجار فضلاً عن جفاف المياه وهنا تبدأ رحلة الحيوان في السعي الدؤوب من أجل الحصولِ عليه ...

وهذا التغيرُ في نوعية النموذج الذى تصدى له الشاعر الأموي، وما حظى به بعضها من إفساح المجال؛ لإعطاء أكبر قدر من المساحة الفنية المستقلة، هذا بالإضافة إلى التفنن والإحكام في رسم اللوحة... كل هذا أضفى على فنه روحَ المنهجيةِ، والقيمَ التأصيلية.

وبالنظر فيما سبق فإنه راجعٌ إلى رحابة الرؤية الثقافية وشمولية المدفعة الحضاريةِ، فضلاً عن سخاء التجربةِ وتنوعها، وصدقها حيث أفرزتها عاطفةُ الشاعر وإحساسُه العميقُ الذي أدى به إلى الاستغراق الشعري وقد ولّد هذا كله – لديه – دقةً في الوصف والتعقب ..!.

إننا إن خلنا فيما سبق فنظرة إلى عاطفة الأمومة لدى الظبية والبقرة الوحشية تجاه أولادهما، فإنهما خير شاهدين على ما نقول.

أن وضحنا - فإن تلك الأحزاب وهذه الثورات قد استعانت بالخطابة أيضا ، وكان لكل حزب خطباؤه كما كان لكل ثورة خطباؤها ، وقام هؤلاء الخطباء بتصوير مذاهبهم السياسية ، ومبادئهم العقدية ، داعين لها ، وداعين - أيضا - للانقضاض على بني أمية .

وكان يلقي خطباء أولئك الأحزاب أنصار الأمويين وخطباؤهم بخطابة ملتهبة ، يصورون فيها خروجهم على الجماعة وشغبهم وأنهم يضلون الطريق ، وكل ذلك هيأ في قوة لنشاط الخطابة السياسية ، يضاف إلى هذا الجانب خطابة القواد في الجيوش الغازية كما يضاف أيضا ما احتدم بين القبائل من خصومات قبلية جعلتهم يقتتلون ، كما جعلتهم يخطبون متوعدين منذرين كالخصومات التي كانت بين قيس من جهة وتغلب والقبائل اليمنية من جهة ثانية ، والخصومات التي بين تميم والأزد ؛ وهي خصومات كانت تختلط فيها العصبيات القبلية بالسياسة ، وموقف القبائل من بني أمية ونصرتهم لهم أو انفضاضهم عنهم .

٢- كثرة الوفود :

بجانب السياسة كان هناك عامل ثان أدى إلى ازدهار الخطابة ، هو كثرة الوفود التي كانت تفد إلى قصور خلفاء بني أمية وولاتهم متحدثة في شئون قومها ، واشتهر معاوية باستقدامه الوفود من الأمصار حين تعن له فكرة سياسية كفكرة توليه ابنه يزيد الخلافة ، وكانت هذه الوفود تنوب عن أقوامها في بيعة الخليفة الجديد ، وفي بث شكواها حين يلم بها ما يوجب الشكوى ، ومن خلال ذلك كانت تلقى الخطب المختلفة أمام الخليفة أو الوالي من خطب البيعة ، أو خطب التهنئة والتعزية وما إلى ذلك .

وقد يتصادف في بعض الأحيان أن تجتمع وفود مختلفة ، حينئـــذ يتبـــارى خطباؤها ، ويحاول كل منهم أن يكون لـــه قصـــب الســـبق في البيـــان والفصاحة.

٣- الدين :

مما لاشك فيه أن الدين الإسلامي كان له أثره البعيد في ازدهار الخطابة ، إذ جعلها جزءا لا يتجزأ من صلاة الجمعة والعيدين ، وقد قام بهذا اللـون من الخطابة أناس كثيرون ، يعظون الناس بالمواعظ الحسنة ، وقد أســهم في هذه الخطابة الخلفاء والولاة ، وجمهور كبير من الخطباء ، وقد قصر كثـــير من الناس حياتهم على وعظ الناس وتوجيههم الوجهة السليمة على هـــدى من كتاب الله وسنة الرسول الكريم ، وظهر بجانب هؤلاء الوعاظ جماعة من القصاص ، كانوا يقصون على الناس ، مازجين قصصهم بتفسير آى الذكر الحكيم ، وبكثير من مخلفات أهل الكتب السماوية وتراثهم الديني .

٤- الخلافات المذهبية :

كان للخلافات المذهبية والعقيدية التي كانت تقوم بين علماء الكلام في مسائل العقيدة ، والتي كان ينشب حولها جدل كثير - أثرهـــا البـــين في ازدهار الخطابة الجدلية.. ومن المسائل التي حدث حولها جدل كثـــير بـــين الفرق الكلامية من جبرية ومرجئة وقدرية ، ومعتزلة - مسألة ارتباط الإيمان بالعمل وهل يعد المسلم مؤمنا وإن لم يؤد الفروض الدينية ، ومسألة حريـــة الإرادة ، وهل الإنسان مخير أم مسير ، ومسألة صفات الله ، هل هى عـــين الذات الإلهية أو غيرها .

وقد تجادلت هذه الفرق في المسائل العقدية جدلا طويلا ، وهو جدال رشح لقيام مناظرات عنيفة بينها ، حشدوا لها كل ما يمكن من أدلة نقلية وعقلية ، ولم ينحصر هذا الجدال العقدي فيما بينهم ، بل جادلوا - أيضا - طوائف من أصحاب الديانات السماوية وغير السماوية .

ويعد من هذا اللون أيضا تلك الخلافات المذهبية ، والتي كانت تقوم بين أعضاء الحزب الواحد ، كالخلافات التي كانت تقع بين الخوارج فيما بينهم حول كثير من المبادئ والآراء .

٥- يضاف إلى ما تقدم :

أسباب أخرى عملت على ازدهار الخطابة منها : حرية الرأي التي كانت مكفولة للناس ، فاستطاع الخطيب أن يجهر برأيه للناس ، ومنها : فصاحة العرب وكان العرب في ذلك العصر ذوي حظ عظيم من المقدرة البيانية ، والبديهة المسعفة والفصاحة المتوارثة ، ومنها : الحروب والثورات ، ولقد كانت الحروب والثورات مذكية للخطابة ، فالقواد الفاتحون ذوولسن يعتمدون عليه في تحميس جنودهم ، والقواد المقاومون للثورات ، وقادة الثورات كل منهم يتخذ الخطابة من سلاحه ، ومنها : اقبال البلغاء على القرآن الكريم يحفظون ويدرسون ويتذوقون ، وهو منبع الثقافة اللغوية والأدبية .

الفصل الثاني

(أنواع الخطابة)

من العرض السابق لعوامل ازدهار الخطابة ، نستطيع أن نتبين أنــواع الخطابة وأنماطها المختلفة ، ويمكننا - بناء على ذلك - أن نردها إلى الألـوان الآتية :

١- الخطب السياسية :

نهضت الخطابة السياسية نهوضا عظيما ، إذ دارت على كـل لسـان مؤيد أو معارض للدولة ، وليس هناك حزب ولا ثورة إلا وخطباء كثيرون ينبرون للترويج لهذا الحزب أو تلك الثورة فللخوارج خطباؤهم وللشـيعة كذلك ، وللزبيريين أيضا ولابن الأشعث وغيره من الثوار كذلك وكـان يقابل هؤلاء الخطباء المعارضين للدولة خطباء كثيرون يؤيدون بني أميـة ، بالإضافة إلى أولئك الخطباء الذين يستحثون الجيوش على الجهاد في سـبيل الله .

(أ) خطب الخوارج :

وإذا ما حاولنا أن نستعرض خطباء الأحزاب نجد أن حزب الخـوارج أكثر الأحزاب خطباء ، إذ كانوا شديدى الحماسة لعقيدتهم . وتلقانـا في خطابتهم نفس الروح التي رأيناها في أشعارهم ، إذ تراهم يدعون للـترامي على الموت ، غير آبهين بالحياة الدنيا ، لأنهم يريدون الحياة الآخرة ، وهـم يحاربون في سبيل الحق .. إلى غير ذلك من المعاني والأغراض التي انبثـت في أشعارهم وعرضنا لها بالتفصيل في دراستنا لشعرهم .

ومن أشهر خطبائهم حيان بن ظبيان ، وأبو حمزة الشاري ، وعبيدة بن هلال ، وسليمان بن صرد ، ونافع بن الأزرق ، وقطري بن الفجاءة وغيرهم..

ومن خطبهم التي تدعو إلى التنفير من الدنيا والتحذير منها خطبة قطري بن الفجاءة ، والتي يقول فيها : ((أما بعد فإني أحذركم الدنيا ، فإنها حلوة خضرة[1] ، حفت بالشهوات .. مع أن امرأ لم يكن منها في حبرة[2] إلا أعقبته بعدها عبرة ، ولم يلق من سرائها بطناً ، إلا منحته من ضرائها ظهراً ، ولم تطله غبية[3] رخاء ، إلا هطلت عليه مزنة[4] بلاء ، وحرى إذا أصبحت له منتصرة أن تمسى له خاذلة متنكرة وإن جانب منها أعذوذب واحلولي[5] أمر عليه منها جانب وأوبي[6] ، وإن آتت امرأ من غضارتها[7] ورفاهتها نعماً أرهقته من نوائبها نقماً ، ولم يمس امرؤ منها في جناح أمن إلا أصبح منها على قوادم[8] خوف ، غرارة غرور ما فيها ، فانية فان من عليها ، لا خير في شئ من زادها إلا التقوى)) .

ومن خطبهم التي تصور إخلاص الخوارج لعقيدتهم وتقواهم وزهدهم في الدنيا وجهادهم في سبيل الله مستعذبين الاستشهاد قول أبي حمزة الخارجي في وصف إخوانه من الخوارج : " ...... شباب والله

---

(١) خضرة : ناضرة (٢) حبرة : سرور

(٣)الطل: المطر القليل.الغبية : المطرة القليلة.(٤)الهطل : المطر الكثير . المزنة : السحابة الممطرة

(٥) أحلولي : صار حلوا (٦) أوبي : من الوباء . (٧) الغضارة : النضارة والخصب .

(٨) القوادم : الريش في مقدم جناح الطائر .

مكتهلون[1] في شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلـــة عـــن الباطن أرجلهم ، أنضاء[2] عبادة وأطلاح[3] سهر ، ينظر الله إليهم في جوف الليـل ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنـــة بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جـــهنم بين أذنيه ، موصول كلالهم[4] بكلالهم : كلال الليل بكلال النهار... حــتى إذ رأوا السهام قد فوقت[5] ، والرماح قد أشـــرعت[6] والســـيوف قــد انتضيت[7] ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت اســـتخفوا بوعيـــد الكتيبة لوعد الله .

(ب) خطب الشيعة :

وكما كان للخوارج خطباؤهم ، كان للشيعة خطبـــاؤهم كذلـــك ، وكانوا في خطبهم ينددون دائماً ببني أمية ، وأنهـــم اغتصبـــوا الخلافـــة ، وساروا فيها سيرة جائرة ، عطلوا فيها أحكام الشريعة وما رسمه القـــرآن والرسول الكريم كما كانوا يرددون في خطبهم أن أبناء عليّ هم أصحـــاب الخلافة الشرعيون ، بغى عليهم بنو أمية إذ انتزعوا منهم ميراثـــهم عـــن الرسول الكريم وكانت هذه المعاني تدور في خطبهم وخطب أئمتهم ومـــن أشهر خطبائهم سليمان بن صرد ، وعبيد الله بن عبد الله المرى والمسيب بن نجبة الفزاري ، بالإضافة إلى خطباء أئمة الشيعة من أمثال علـــيّ بـــن أبي طالب ، والحسن بن على ، والحسين بن على ، وعبد الله بن جعفر ابـــن أبي طالب .

(١) مكتهلون : يريد أن لهم رزانة الكهولة .
(٢) أنضاء : مهزولون .
(٣) أطلاح : مكدودون .
(٤) الكلال : التعب والإعياء .
(٥) فوق السهم : جعل له فوقاً ، وأعد للرمي .
(٦) أشرعت : سددت
(٧) انتضيت : استلت ، أخرجت من أغمادها .

ومن خطبهم التي تدور حولها فكرة الخلافة ، وأن أبناء علىّ هم أصحاب الخلافة الشرعيون ، وأن بني أمية قد اغتصبوا هذا الحق منهم .. خطبة الحسين بن عليّ حين اقترب من الكوفة واجتمع الناس من حوله ولقيته مقدمات الجيش الذي أرسله له عبيد الله بن زياد - يقول الحسين في كلمة له : ((أما بعد أيها الناس فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله . ونحن - أهل البيت - أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجور والعدوان)) .

ومن خطبهم التي تحرض على الثورة وتستثير الناس على الأمويين لما سفكوا من دم الحسين الطاهر قول سليمان بن صرد في إحدى خطبه : ((قتل فينا ولدينا ولد نبينا وسلالته وعصارته وبضعة[1] من لحمه ودمه . اتخذه الفاسقون غرضاً للنبل .. ألا انهضوا فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل[2] والأبناء حتى يرضى الله ، والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا من قتله أو تبيروا[3] . ألا لا تهابوا الموت ، فوالله ما هابه امرؤ قط إلا ذل ، كونوا كالألى من بني إسرائيل إذ قال لهم نبيهم "إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم " فما فعل القوم ؟ جثوا على الركب والله ، ومدوا الأعناق ، ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبر على القتل ، فكيف بكم لو قد دعيتم إلى مثل مادعى القوم إليه ؟ اشحذوا السيوف ، وركبوا الأسنة ، " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط[4] الخيل " حتى تدعوا وتستنفروا .

(١) بضعة : قطعة . (٢) الحلائل : جمع حليلة ، وهي الزوجة . (٣) تبيروا : تهلكوا .

(٤) الرباط : جمع ربيط وهو المربوط ، أو اسم للخيل التي تربط في سبيل الله .

(ج) خطب الزبيريين :

سبق أن قلنا – عند حديثنا عن الشعر – أن الحزب الزبيري أقل الأحزاب شعرا وشعراء ، وقل عن الخطابة كذلك ، فهوا أقلهم خطابة وخطباء لأن الحزب الزبيري لم يعش طويلا ، ولم يكن له من الأثر الأدبي مثل ما للأحزاب الأخرى وكان خطباء هذا الحزب – كما كان شعراؤه – يتناولون الأمويين بالقدح والتجريح ، وما تورطوا فيه من آثام ، وكيف أنهم اغتصبوا الخلافة التي ينبغي – بل يجب في نظرهم – أن تكون في أبناء الصحابة .

ومن أشهر الزبيريين عبد الله بن الزبير وأخوه مصعب ، وهذه خطبة لعبد الله بن الزبير خطبها حين جاءه نعي أخيه مصعب واستيلاء عبد الملك بن مروان على العراق ، وفيها يقول :

((... إن يقتل فقد قتل أبوه وعمه وابن عمه[1] وكانوا الخيار الصالحين ، إنا والله لا نموت حتف أنوفنا[2] ولكن قعصا[3] بالرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان ، والله ما قتل منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قط . ألا وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه ، ولا يبيد ملكه ، فإن تقبل الدنيا علي لم آخذ... أخذ الأشر[4] البطر، وإن تدبر عني لم أبك عليها بكاء الخرق[5] المهين ،)) .

---

(١) أبوه الزبير قتل عقب موقعة الجمل ، وعبد الرحمن بن العوام قتل يوم اليرموك وابنه عبد الله قتل يوم الدار .

(٢) يقال مات حتف أنفه ، إذا مات على الفراش .

(٣) قعصا : موت سريعا

(٤) الأشر : البطر

(٥) الخرق :الدهش خوفا

(د) خطب الأمويين :

إذا كان للأحزاب السابقة والمعارضة للحكم الأموي خطباؤها الذين يندون بالأمويين وينعتونهم بكل قبيح - فإن للحزب الأموي المؤيد والمناصر للنظام الأموي خطباءه كذلك الذين يقفون في الصف المقابل من هؤلاء الخطباء المعارضين مدافعين عن الخلافة والخلفاء الأمويين يتقدم هؤلاء الخطباء ، الخلفاء ، ثم الولاة والقواد ، وممن اشتهر بالخطابة من الخلفاء : معاوية وعبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز ، ومن الولاة والقواد : عتبة بن أبي سفيان وزياد والحجاج وخالد القسري ، ومسلم بن عتبة ، وقتيبة بن مسلم ، وأسد القسري ، ونصر بن سيار .

وخطب هذا الحزب تدور في أغلبها حول السياسة ، إذ كان الخطباء من الخلفاء والولاة يدعون إلى طاعة الأمويين ملوحين بالبطش والقوة لمن تسول له نفسه العصيان والتمرد ، ومرغبين فيما في أيديهم من هبات وعطايا ، ولذلك نرى أكثر الخطب عندهم تحمل طابع الوعيد والتهديد ، وإذا كان أغلبها يدور حول السياسة فإن بعضها كان يدور حول المواعظ الخاصة .

ومن خير ما يمثل اللون الأول من هذه الخطب خطبة الحجاج في الكوفة حين قدم على العراق واليا من قبل عبد الملك ، وفيها يقول :

" ...... إني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها ، وإني لصاحبها ، وإني لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى . إني والله يا أهل العراق والشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق ما أغمز تغماز التين ولا

يقعقع لي بالشنان[1] ولقد فررت [2] عن ذكاء وفتشت عن تجربة . وإن أمير المؤمنين كب كنانته[3] فعجم[4] عيدانها فوجدني أمرها عوداً ، وأصلبها عموداً فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم[5] في الفتن ، واضطجعتم في مراقد الضلال ، وسننتم سنن الغي . أما والله لألحونكم[6] لحو العصا ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ... أما والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده "

ومن خير ما يمثل اللون الثاني منها وهو الذي يدور حول المواعظ الخالصة - خطب عمر بن عبد العزيز التي يتحدث فيها عما ينتظر الإنسان من الموت ، وانتقاله إلى دار الخلود ومحاسبته على ما قدمت يداه ، ومنها خطبته التي يقول فيها :

" أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً يحكم الله بينكم فيه ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شئ وحرم الجنة التي عرضها السموات والأرض . واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف الله اليوم وباع قليلاً بكثير وفانيا بباق ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، كذلك حتى تردوا إلى خير الوارثين " .

أما خطب قواد الفتوح شرقاً وغرباً فكانت تدور حول حث الجنود على الاستشهاد في سبيل الله مقتبسين من آى الذكر الحكيم ما يشعل حماستهم ،

---

(١) القعقعة : التحريك ، الشنان : جمع شن ، وهو القربة البالية كانوا يحركونها إذا استحثوا الإبل للمسير ، مثل يضرب لمن يروعه مالا حقيقة له. (٢) فررت : اختبرت .
(٣) الكنانة : جعبة السهام . (٤) عجم : اختبر .
(٥) أوضع : أسرع في سيره أو سار بين القوم (٦) لحا العصا : قشرها

ويذكي جذوة شجاعتهم ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبة قتيبة بن مسلم الباهلي، وقد تهيأ لغزو طخارستان سنة ٨٦ للهجرة ، وفيها يقول :

" وعد الله نبيه ﷺ وسلم النصر بحديث صادق وكتاب ناطق ، فقال تعالى : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال تعالى : (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) وأخبر عمن قتل في سبيله أنه حيّ مرزوق فقال تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءً عند ربهم يرزقون) فتنجزوا موعود ربكم " .

٢- خطب الوفود والمحافل :

خطابة الوفود والمحافل لون ثان من ألوان الخطابة في العصر الأموي ولقد عرف العرب قديماً هذا اللون من الخطابة حيث كانوا يقدمون على ملوكهم وأمرائهم ، فيخطبون بين أيديهم مثنيين عليهم ، ومفاخرين بقبائلهم ، كما كانوا يخطبون في أقوامهم مصلحين بين العشائر أو منافرين أو حاثين على الحرب ، أو داعين لإنهائها .. أو ما إلى ذلك .. كذلك قدمت وفود العرب - بعد فتح مكة - على الرسول ﷺ يتقدمهم خطباؤهم ، وكانوا كثيراً ما يخطبون بين أيدي الخلفاء الراشدين .

أما في عصر بني أمية فقد نشطت هذه الخطابة نشاطا واسعا ، وكان مما ساعد على ذلك أن الأمويين وولاتهم فتحوا أبوابهم للعـــرب ، وكـــانت وفودهم تمثل بين أيديهم ، وكانوا يغدقون عليهم إغداقا واسعا ، وأول من فتح أبوابه لتلك الوفود معاوية ، ثم تبعه الخلفاء الأمويون ينهجون نهجه .

وممن اشتهر بالخطابة بين يدي معاوية (سحبان) خطيـــب وائـــل ، (والأحنف ابن قيس) خطيب تميم ، وصحار بن عياش العبـــدي ، ومـــن خطباء تميم عمرو بن الأهتم ومن الخطباء البلغاء عبد العزيـــز بـــن زرارة الكلابي الذي خاطب معاوية بقوله :

" يا أمير المؤمنين لم أزل أستدل بالمعروف عليك ، وأمتطي النهار إليك ، فإذا ألوي[1] بي الليل ، فقبض البصر ، وعفى الأثر ، أقام بدني ، وســافر أملي ، والنفس تلوم ، والاجتهاد يعذر ، وإذ بلغتك فقطني[2] " .

وكان هؤلاء الخطباء كثيرا ما يتنافسون ، حيث كانت تدعو إلى هـــذا التنافس أسباب سياسية ، وبذلك يحاول كل منهم إحراز الغلبة على نحو ما كان من خطباء الوفود الذين تباروا يوم عقد معاوية البيعة لابنه يزيد . ومن ذلك الجمع بين التهنئة والتعزية ، على نحو ما فعل عبد الله بن همام السلولي الكوفي ، فقد دخل على يزيد بن معاوية حين استخلف والناس مجموعـــون على بابه يتهيبون القول فقال :

" يا أمير المؤمنين آجرك الله على الرزية ، وبـــارك لـــك في العطيـــة ، وأعانك على الرعية ، فلقد رزئت عظيما ، وأعطيت جسيما ، فاشـــكر الله على ما أعطيت ، واصبر له على مارزيت ، فقدت خليفة الله ، ومنحـــت خلافة الله ، ففارقت جليلا ، ووهبت جزيلا " .

(١) ألوى – هنا – : جن علي ، وأحدقت بي ظلمته . (٢) قطني : يكفيني .

" الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقي بلا نهاية ، الذي علا في دنوه ودنا في علوه ، فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ، ولا يئوده[1] حفظ ما خلق ، ولم يخلقه على مثال سبق ، بل أنشأه ابتداعا ، وعدله اصطناعا ، فأحسن كل شئ خلقه وتمم مشيئته ، وأوضح حكمته ، فدل على ألوهيته ، فسبحانه لا معقب لحكمه ولا دافع لقضائه ، تواضع كل شئ لعظمته ، وذل كل شئ لسلطانه ، ووسع كل شئ فضله ، لا يعزب عنه مثال حبة وهو السميع العليم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلها تقدست أسماؤه ، وعظمت آلاؤه ، وعلا عن صفات كل مخلوق ، وتنزه عن شبيه كل مصنوع ، فلا تبلغه الأوهام ، ولا تحيط به العقول والأفهام ، يعصى فيحلم ، ويدعى فيسمع ، ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون " .

ثم يأخذ – بعد ذلك – في الحث على التقوى والعمل الصالح والتنفير من الدنيا ومتاعها الزائل – يقول :

" أوصيكم عباد الله مع نفسي بتقوى الله والعمل بطاعته والمجانبة لمعصيته وأحضكم على ما يدنيكم منه ويزلفكم لديه ، فإن تقوى الله أفضل زاد وأحسن عاقبة في معاد ، ولا تلهينكم الحياة الدنيا بزينتها وخدعها وفواتن لذاتها ، وشهوات آمالها ، فإنها متاع قليل ومدة إلى حين ، وكل شئ فيها يزول ، فكم عاينتم من أعاجيبها ، وكم نصبت لكم من حبائلها ، وأهلكت من جنح إليها واعتمد عليها ، أذاقتهم حلوا ، ومزجت لهم سما".

---

(١) يئوده : يثقله

ومن خطب الحسن البصري - وكان من أعلام الزهد في عصره - خطبته التي ينفر الناس فيها من الدنيا ويذكر باليوم الآخر حاثا على التقوى والعمل الصالح ، والتي يقول فيها : ((يا بن آدم بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا ، يا بن آدم إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم به ، الثواء هاهنا قليل والبقاء هناك طويل ، أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم ولا نبي بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم ، أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم ،وإنما ينتظر بأولكم أن يلحق آخركم . من رأى محمدا ﷺ فقد رآه غاديا رائحا[1] لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة .. (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) . يا بن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عما قليل قبرك ، وأعلم أنك لم تزل في هدم عمرك مذ سقطت من بطن أمك ، فرحم الله رجلا نظر فتفكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، وأبصر فصبر ...)) .

ومن خطبه التي يعنف فيها بالأغنياء ، حيث شغلهم متاع الدنيا عن طلب الآخرة خطبته التي يقول فيها :

" رحم الله امرأ كسب طيبا وأنفق قصدا ، وقدم فضلا ، وجهوا هذه الفضول حيث وجهها الله وضعوها حيث أمر الله ، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ويؤثرون بالفضل . ألا إن هذا الموت قد أضر بالدنيا ، ففضحها ، فلا والله ما وجد ذولب فيها فرحا ، فإياكم وهذا السبل المتفرقة التي جماعها الضلالة وميعادها النار . أدركت من صدر هذه الأمة قوما كانوا إذا أجنهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفترشون وجوههم

(١) غاديا رائحا : يريد أنه كان يغدو ويروح في كسب عيشه الضروري .

، تجري دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم في فكاك رقابهم[١] ابـــن آدم إن كان لا يغنيك ما يكفيك فليس هاهنا شئ يغنيك ، وإن كان يغنيك ما يكفيك فالقليل من الدنيا يغنيك " .

---

(١) فكاك رقابهم : يريد تخليصهم رقابهم من شهوات الدنيا أو من جزاء لا يرضونه .

القسم الثالث

الكتابة في العصر الأموي

الرسائل :

اتسعت حركة التدوين في عصر بني أمية ، وكان من أوائل ما عنـــوا بتدوينه من معارفهم العربية الخالصة أخبار آبائهم في الجاهليـــة وأنســـابهم وأشعارهم ، ومن ثم كثر بينهم علماء النسب وأصحاب الأخبار ، ومـــن أشهرهم " دغفل بن حنظلة السدوسي " المتوفى ســـنة ٧٠ للـــهجرة ، وبجانب ذلك نجد القبائل تعني بأخبارها في الجاهلية وأشعارها فتدونها .

وعناية العرب في هذا العصر بتدوين أخبـــارهم الجاهليـــة وأنســـابهم وأشعارهم لا تقاس إلى عنايتهم بتدوين كل ما اتصل بدينهم الحنيف ، فقـــد تأسست في كل بلدة إسلامية مدرسة دينية عنيت بتفسير القرآن الكـــريم ورواية الحديث النبوي وتلقين الناس الفقه وشئون التشريع ..

وبالإضافة إلى ذلك فقد أخذت تدون - منذ القرن الأول - مغـــازى الرسول ﷺ ، وممن عنوا بها عروة بن الزبير وأبان بن عثمان . كما دونت - أيضا - أخبار الأمم السالفة ، وقد عنى بذلك معاوية - أول خلفاء بني أميـــة - أشد العناية ، إذ استقدم عبيد بن شرية الجرهمى اليمني ليحدثه في مجالســـه عن أخبار ملوك العرب الماضين ، كما دونت - أيضا - مصنفات تاريخيـــة وأدبية وعقدية .

ومن جملة ما دون - إبان العصـــر الأمـــوي - الرســـائل السياســـية والوعظية والشخصية ، فإن رسائل القوم على اختلافها دون منها قدر كبير ورواها الطبري وغيره ، كما دونوا كثيرا مـــن خطبهـــم ، وخاصة

خطب الخلفاء والخطباء التابعين ، من مثل الحسن البصري وواصل بن عطاء..

وهذا كله يشير إلى أن التدوين قد أخذ يذيع وينتشر بين العرب في جميع فروع المعرفة .

الرسائل السياسية :

ويعنينا - هنا - فيما دون من أنماط الكتابة التي أشرنا إليها - الرسائل التي تمخض عنها العقل في هذا العصر . ونود أن نقول : إن هذا العصر قد زخر برسائل كثيرة احتوتها كتب التاريخ والأدب وكان النصيب الأكبر منها للرسائل السياسية ، كما كان النصيب الأكبر من الشعر والخطب للسياسة أيضا ، لأن الأدب الأموي - في معظمه - أدب سياسي ، كما سبق أن أوضحنا .

والخلافات السياسية والمذهبية بين الأحزاب المعارضة للحكم الأموي وبين الحزب الأموي - عبرت عنها رسائل كثيرة ، كما عبر عنها الشعر ، وعبرت عنها الخطابة من قبل ، كما عبرت الرسائل عن الخلافات المذهبية بين الحزب الواحد كحزب الخوارج ، حيث إنهم انقسموا إلى فرق وطوائف ، لكل فرقة وطائفة مذهبها وطريقتها ، وهم الأزارقة والنجدية والصفرية والإباضية ... وكذلك الأمر بالنسبة لحزب الشيعة ، فقد انقسموا هم الآخرون إلى فرق وطوائف .. بالإضافة إلى الرسائل التي كانت تتم بين أنصار الحزب الواحد .

والخلافات السياسية ، وهي القائمة بين الأحزاب المعارضة وبين الحزب الأموي تصورها رسائل كثيرة ، كالرسائل التي تبودلت بين الحسن ومعاوية

، أو بين قطري بن الفجاءة والحجاج ، ويهمنا أن نورد هاتين الرسالتين اللتين تبود لنا بين الحسن ومعاوية ، وهاتين الرسالتين اللتين تبود لنا بين قطري والحجاج لندلل بها على هذا اللون من الرسائل السياسية .

رسالة الحسن إلى معاوية :

كتب الحسن بن علي إلى معاوية ، وقد دس معاوية رجلين بالكوفة ، والبصرة ليكتبا إليه بأخبار الحسن فأخذا وقتلا .

أما بعد فإنك دسست إلى الرجال ، كأنك تحب اللقاء ، لا أشك في ذلك ، فتوقعه إن شاء الله . وبلغني أنك شمت بما لم يشمت به ذوو الحجا[1] ، وإنما مثلك في ذلك كما قال الأول :

فإنا ومن قد مات منا لكالذي ... يروح فيمسي في المبيت ليغتدى

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى ... تجهز لأخرى مثلها فكأن قد[2]

رسالة معاوية إلى الحسن :

رد معاوية على الحسن بقوله :

" أما بعد ، فقد وصل كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، ولقد علمت بما حدث فلم أفرح ولم أحزن ، ولم أشمت ولم آس[3] . وإن عليا أباك لكما قال أعشى بن قيس بن ثعلبة :

---

(١)الحجا : العقل ، أي شمت بموت أبي ولا يشمت عاقل بالموت .

(٢)كأن قد : كأنها قد حلت بك .   (٣) لم آس : لم أحزن .

فأنت الجـــواد وأنـــت الذي إذا ما القلوب ملأن الصدورا
جدير بطعنة يـــوم اللقـــــا يضرب منها النســـاء النحورا
وما مزبد[١] من خليج البحـــا ر يعلو الاكام ويعلو الجسورا
بأجـــود منـــه بـــما عنـــده فيعطي الألوف ويعطي البدورا[٢]

رسالة الحجاج إلى قطري بن الفجاءة :

" سلام عليك . أما بعد فإنك مرقت من الدين مروق الســـهم مـــن الرمية ، وقد علمت حيث تجرثمت[٣] ذاك أنك عاص لله ، ولولاة أمـــره ، غير أنك أعرابي جلف [٤] أمي تستطعم [٥] الكسرة وتستشفي[٦] بـــالتمرة والأمور عليك حسرة ، خرجت لتنال شبعة . فلحق بك طغام[٧] صلوا بما صليت به من العيش فهم يهزون الرماح ويستنشئون[٨] الريـــاح ، علـــى خوف وجهد من أمورهم ، وما أصبحوا ينتظرون أعظم مما جهلوا معرفته ، ثم أهلكهم الله بترحتين[٩] والسلام " .

رسالة قطري إلى الحجاج :

رد قطري على الحجاج بقوله :

" سلام على الهداة من الولاة الذين يرعون حريم الله ويرهبون نقمـــه ، فالحمد لله على ما أظهر من دينه ، وأظلع[١٠] به أهل السفال وهدى به مـــن الضلال ، ونصر به عند استخفافك بحقه . كتبت إلي تذكـــر أني أعـــرابي جلـــف أمـــي اســـتطعتم الكسرة ، واستشفى بالتمرة ، ولعمري يا ابـــن

(١) مزبد : مائج يقذف بالزبد . الأكام : جمع أكمة وهى التل . (٢) البدور : جمع بدرة وهى كيس به ألف درهم أو سبعة آلاف أو عشرة آلاف . (٣) تجرثمت الشيء : أخـــذت معظمـــه
(٤) جلف : جاف . (٥) تستطعم الناس : تسألهم أن يطعموك . (٦) تستشفي : تطلب الشـــفاء .
(٧) الشبعة: ما يشبع من الطعام . طغام الناس : أرذا لهم .(٨) يستنشئون الرياح : يتنسمونها ، كناية عن جوعهم . (٩) بشر الحجاج إلى هزيمتين هزمهما الأزارقة أمام المهلب بن أبي صفرة.
(١٠) أظلع : من الظلع وهو العرج .

أم الحجاج ، إنك لمتية في جبلتك[١] ، مطلخم[٢] في طريقتك ، واه في وثيقتك[٣] ، لا تعرف الله ولا تجزع من خطيئتك ، يئست واستيأست من ربك ، فالشيطان قرينك لا تجاذبه وثاقك ، ولا تنازعه خناقك ، فالحمد لله الذي لو شاء أبرز لي صفحتك ، وأوضح لي صلعتك[٤] فوالذي نفس قطري بيده لعرفت أن مقارعة الأبطال ليس كتصدير[٥] المقال ، مع أني أرجو أن يدحض الله حجتك ، وأن يمنحني مهجتك " .

أما الخلافات المذهبية ، وهي التي كانت قائمة بين أعضاء الحزب الواحد - فتصورها رسائل عدة ، كالرسائل التي تبودلت بين نجدة ونافع الخارجيين ، أو بين نافع وخوارج البصرة ، أو بين قطري وأبي خالد الخارجيين . ومن المفيد أن نورد بعضا من هذه الرسائل لندلل بها على هذا اللون من الرسائل التي تمثل الخلافات المذهبية بين أعضاء الحزب الواحد .

رسالة (نجدة بن عامر) إلى (نافع بن الأزرق) :

" بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإن عهدي بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم ، وللضعيف كالأخ البر ، لا تأخذك في الله لومة لائم ، ولا ترى معونة ظالم .

كذلك كنت أنت وأصحابك . أما تذكر قولك : " لولا أني أعلم أن للإمام العادل مثل أجر جميع رعيته ، ما توليت أمر رجلين من المسلمين ". فلما شريت نفسك ، في طاعة ربك ابتغاء رضوانه ، وأصبت من الحق فصة[٦] ، وركبت مره ، تجرد لك الشيطان ، ولم يكن أحد أثقل عليه وطأة منك ومن أصحابك ، فاستمالك واستهواك ، واستغواك وأغواك ،

(١) متيه : مضلل . الجبلة : السجية . (٢) مطلخم : متعجرف . (٣) الوثيقة : الثقة .
(٤) كناية عن ذلته وانكشاف أمره .(٥) تصدير المقال : تسطيره وتحبيره .(٦)فصة:مفصله

فغويت ، فأكفرت الذين عذرهم الله في كتابه من قعد[1] المسلمين وضعفتهم[2] ، فقال - جل ثناؤه ، وقوله الحق ، ووعده الصدق - : " ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله " ثم سماهم أحسن الأسماء ، فقال : " ما على المحسنين من سبيل " . ثم استحللت قتل الأطفال ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم ، وقال عز ذكره : " ولا تزر وازرة وزر أخرى " .. ورأيت ألا تؤدي الأمانة إلى من خالفك ، والله يأمر أن تؤدي الأمانات إلى أهلها ، فاتق الله وأنظر لنفسك ، واتق يوما لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ، فإن الله عز ذكره بالمرصاد ، وحكمه العدل وقوله الفصل ، والسلام " .

رسالة (نافع) إلى (نجدة) :

" بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد أتاني كتابك تعظني فيه وتذكرني ، وتنصح لي وتزجرني ، وتصف ما كنت عليه من الحق ، وما كنت أوثره من الصواب ، وأنا أسأل الله عز وجل أن يجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وعبت على ما دنت به من إكفار القعد ، وقتل الأطفال ، واستحلال الأمانة فسأفسر لك لم ذلك إن شاء الله .

أما هؤلاء القعد ، فليسوا كما ذكرت ، ممن كان بعهد رسول الله ﷺ ، لأنهم كانوا بمكة مقهورين . لا يجدون إلى الهرب سبيلا ، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقا ، وهؤلاء قد فقهوا في الدين ، وقرأوا القرآن ،

---

(١) القعد : اسم جمع قاعد .　　(٢) الضعفة : جمع ضعيف .

والطريق لهم نهج واضح ، وقد عرفت ما قاله عز وجل فيمن كان مثلهم إذ قال :

" قالوا كنا مستضعفين في الأرض " فقيل لهم : " ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها " ..

وأما أمر الأطفال فإن نبي الله نوحا عليه السلام كان أعلم بالله يا نجدة مني ومنك ، فقال : " رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا " فسماهم بالكفر وهم أطفال قبل أن يولدوا فكيف ذلك في قوم نوح ، ولا نقر له في قومنا ؟ والله يقول : " أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر؟ " .

وأما استحلال أمانات من خالفنا ، فإن الله عز وجل أحل لنا أموالهم كما أحل دماءهم فدماؤهم حلال طلق[1] وأموالهم فيء للمسلمين .

فاتق الله ، وراجع نفسك ، فإنه لا عذر لك إلا بالتوبة ، ولن يسعك خذلاننا والقعود عنا ، وترك ما نهجناه لك من طريقتنا ومقالتنا ، والسلام على من أقر بالحق وعمل به " .

الرسائل الوعظية :

وكما دونت رسائل كثيرة تمثل اتجاهات السياسة في ظل عصر بني أمية ، وكما دونت رسائل كثيرة - أيضا - تمثل اتجاهات المذاهب المختلفة التي كانت قائمة بين أعضاء الحزب الواحد والجماعة الواحدة ، مما يمكن أن نطلق عليه الرسائل السياسية - كما دونت هذه الرسائل ، فقد دونت رسائل كثيرة تنحو نحو الوعظ والإرشاد وتقديم النصح للمسلمين ، مما يمكن أن نطلق عليه الرسائل الوعظية ، وقد أخذ يشيع هذا اللون من الكتابة ، منذ أواخر القرن الأول للهجرة ، وقد اشتهر عمر بن عبد

(١) طلق : حلال

العزيز بأنه كان يكتب إلى الوعاظ أن يرسلوا إليه بعظاتهم ، ويروي أنه لما ولي الخلافة أرسل إلى الحسن البصري أن يكتب له بصفة الإمام العادل ، فكتب له رسالة طويلة استهلها بقوله :

" اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل وقصد[١] كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة[٢] كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله ، الرفيق بها ، الذي يرتاد لها أطيب المراعي ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكفيها من أذى الحر والقر[٣] ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صغارا ويعلمهم كبارا ، يكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد مماته والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة بولدها ، حملته كرها ، ووضعته كرها ، وربته طفلا تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته ... " .

وكان يجاري الحسن البصري في هذا الأسلوب الوعظي كثير من الوعاظ على رأسهم (غيلان الدمشقي) ويروي أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز يعظه في رسالة طويلة منها قوله :

" اعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خلقا باليا ورسما عافيا ، فيا ميت بين الأموات لا ترى أثرا فتتبع ، ولا تسمع صوتا فتنتفع ، طفئ أمر السنة ، وظهرت البدعة ، أخيف العالم فلا يتكلم ، ولا يعطى الجاهل فيسأل " .

---

(١) قصد : هداية .　　(٢) نصفة : من الأنصاف .

(٣) القر : البرد .

الرسائل الشخصية :

بالإضافة إلى الرسائل السابقة على اختلاف أنواعها ، فقد شاعت في هذا العصر الرسائل الشخصية ، بحكم تباعد العرب في موطنهم ، وبتأثير بعض الظروف من موت يقتضي التعزية ، أو ولاية تقتضي التهنئة ، أو شفاعة عند وال لقريب أو صديق ، أو عتاب أو اعتذار .

وممن اشتهر في هذا اللون من الرسائل الشخصية عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر ، فقد كان لسنا بليغا ، يعرف كيف يحرك الكلم ويصوغه صياغة باهرة ، ومن رسائله هذه رسالة كتب بها إلى بعض إخوانه معاتبا ، فقال :

" أما بعد ، فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك ، ابتدأتني بلطف عن غير خبرة ، ثم أعقبتني جفاء عن غير ذنب ، فأطمعني أولك في إخائك ، وأيأسني آخرك من وفائك ، فلا أنا في اليوم مجمع لك اطراحا ، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة ، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة فيك ، فأقمنا على ائتلاف ، أو افترقنا على اختلاف ، والسلام " .

الرسائل الديوانية :

هناك - بالإضافة إلى كل ما تقدم - نوع هام من الرسائل ، هو الرسائل الديوانية ، ويقصد بالرسائل هذه تلك الرسائل التي كانت تخرج من ديوان الخليفة أو الوالي ، حيث يدبجها كتاب محترفون يعينون لهذه الوظيفة ، كي يكتبوا ما يريده الخليفة أو الوالي إلى من يشاءون أن يرسلوا إليهم من الولاة ، أو القواد أو العمال ، أو غيرهم من الأشخاص ، وهذا

يعني أن هؤلاء الكتاب كانوا يكتبون هذه الرسائل على ألسنة الخلفاء والولاة ، ومن ثم كانوا يختارون من أرباب الكلام وأصحاب اللسن والبيان.

وكان هؤلاء الكتاب المحترفون كثيرين ، إذ لم تختص بهم دمشق ، فقد كان لكل وال وقائد كاتب وأحيانا كان يتخذ الوالي في العمل الكبير أو الولاية الكبيرة طائفة من الكتاب .

ومن أشعر هؤلاء الكتاب محمد بن يزيد الأنصاري ، وعمرو بن سعيد بن العاص ، وعبيد الله بن أوس الغساني - وكان يتولى ديوان الرسائل لمعاوية وابنه يزيد - وروح بن زنباع الجذامي وسليمان بن سعد الخشني - رئيس كتاب عبد الملك وأبنائه من بعده - وغير هؤلاء كثير .

ونورد هنا إحدى هذه الرسائل للتدليل على هذا النمط من الكتابة .

كتب عبيد الله بن أوس الغساني رسالة على لسان يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد ليتخذ العدة في مقاومة الحسين بن علي حين نزوله العراق وهي تمضي على هذا النحو :

" أما بعد فإن الممدوح مسبوب يوما ما ، وإن المسبوب ممدوح يوما ما ، وقد أنتميت إلى منصب كما قال الأول :

رفعت فجاورت السحاب وفوقه فما لك إلا مرقب الشمس مرقب

وقد ابتلي بحسين زمانك دون الأزمان ، وبلدك دون البلدان ، ونكبت به من بين العمال ، فإما تعتق أو تعود عبدا ، كما يعبد العبد والسلام " .